جامعة المنصورة
كلية التربية

"وصف الشخصية في كتاب وحي القلم للرافعي"

إعداد

أمل عبد الباسط علي أحمد

إشراف

أ.د/ عبد الحميد عبد العظيم القط
أستاذ الأدب والنقد
كلية التربية - جامعة المنصورة

د/ نجوي إبراهيم أحمد
مدرس الأدب والنقد
كلية التربية - جامعة المنصورة

مجلة كلية التربية – جامعة المنصورة

العدد ١١٩ – يوليو ٢٠٢٢

"وصف الشخصية في كتاب وحي القلم للرافعي"

أمل عبد الباسط علي أحمد

ملخص البحث

تناولت في هذا الفصل مقدمة عن الشخصية، وأنواعها المختلفة، ثم تطرقت بعد ذلك إلي أهم الشخصيات المجتمعية التي وقف عليها الرافعي في كتابه وحي القلم بأجزائه الثلاثة ك:

١/ وصف الرافعي لذاته وشخصيته حال فرحه أو حزنه.

٢/ وصف شخصيات الأطفال علي اختلاف طبقاتهم كالأطفال الأيتام وما يعانون من هم وحزن لفقد أهليهم، والأطفال الفقراء وما يعانون من الحاجة وضيق اليد، ثم الأغنياء منهم وكيف أفسدتهم النعمة وعظيم الثراء.

٣/ وصف شخصيات النساء وصفا عفيفا يحمل نقدا اجتماعيا للظواهر المجتمعية السلبية ومدحا للشخصيات العفيفة منها.

٤/ وصف شخصيات الشباب الأقوياء والضعفاء، والوقوف علي شخصيات الشباب الأعزب والدافع لذلك.

٥/ وصف شخصيات المتكبرين من رجال الدولة ورجال الدين والأغنياء.

٦/ وصف شخصيات أعلام العصر الحديث كشوقي وحافظ إبراهيم.

Abstract

In this chapter, I dealt with an introduction to personality its different types, and then touched on the most important societal figures on which al-Rafi'i stood in his book and the revelation of the pen in its three parts, such as:

1. Al-Rafi'i's description of himself and his personality in case of his joy or sadness
2. Describe the personalities of children of different classes such as orphaned children and what they suffer from and grief for the loss of their parents, poor children and what they suffer from need and tightness of hand, then the rich of them and how grace and great wealth spoiled them.
3. The description of women's personalities is chaste and carries a social critique of negative societal phenomena and praise for chaste personalities.
4. Describe the personalities of the strong and weak young people, and stand on the personalities of the single youth and the motivation for it

5.Describe the personalities of the arrogant statesmen, clergy and the rich.
6.described the figures of modern-day flags as Shawki and Hafez Ibrahim

مدخل:

تعد الشخصية بمثابة العمود الفِقَري المحرك للأحداث في القصة والروايــة، إذ يعتمــد عليها الأديب في نقل الأفكار وبث الآراء و وتجسيد الواقع، فكل ما تحويه القصة من معانٍ وقــيم يدور في فلكها، فلا يمكن أن تنشأ حكاية من غير شخصية، فهي الحدث الفاعل المــؤثر، وعــن طريقها ينشأ المعني الكلي للنص السردي، وقد جاء في تعريفها أنها "هي كل مشارك في أحــداث الحكاية، سلبا أو إيجابا، أما من لا يشارك في الحدث فلا ينتمي إلي الشخصيات، بل يكون جــزءا من الوصف"(١).

ويستطيع الأديب محاكاة الواقع وتجسيده وبث القيم والمعاني الإنسانية المرادة عن طريق رسم الشخصيات، بكل ما يتصل بها من أفعال وأقوال وسلوك، وكلما كان دقيــق فــي وصــفها ورسمها كان إيصال المعني المراد للقارئ أقرب، ومن فحوي الرسالة أفهم، وعن هــذا المعنــي تحدث د. محمد غيمي هلال قائلا: "الأشخاص في القصة مدار المعاني الإنسانية، ومحور الأفكار والآراء العامة، ولهذه المعاني والأفكار المكانة الأولى في القصة منــذ انــصرفت إلــى دراســة الإنسان وقضاياه، إذ لا يسوق القاص أفكاره وقضاياه العامة منفصلة عن محيطها الحيــوي، بــل ممثلة في الأشخاص الذين يعيشون في مجتمع ما، وإلا كانت مجرد دعاية، وفقدت بــذلك أثرهــا الاجتماعي وقيمتها الفنية معا، فلا مناص من أن تحيا الأفكــار فــي الأشــخاص، وتحيــا بهــا الأشخاص، وسط مجموعة من القيم الإنسانية يظهر فيها الوعي الفردي متفاعلا مع الوعي العام، في مظهر من مظاهر التفاعل ، علي حسب ما يهدف إليه الكاتب، في نظرته إلى هذه القيم، وفي أغراضه الإنسانية، ولا مناص من اتساق هذه الأغراض مع الغرض الفني، وهذا مظهر الصراع النفسي أو الاجتماعي، يقوم به الأشخاص ضد المجتمع وعوامل الطبيعة، وقد يقوم به الــشخص ضد نفسه" (٢).

١) معجم مصطلحات نقد الرواية: د. لطيف زَيتوني، دار النهار للنشر، لبنان، ط١، ٢٠٠٢م، ص١١٣، ١١٤.
٢) النقد الأدبي الحديث: د. محمد غنيمي هلال، دار نهضة مصر، د. ط،١٩٩٧م، ص٥٢٦.

أنواع الشخصية الروائية:

تتنوع الشخصية القصصية أو الروائية بحسب أطوار العمل الروائي الذي تقوم بـــه، إذ "الشخصية دور، والأدوار في الرواية متعددة ومختلفة. فالشخصية تكون رئيـــسية أو ثانويـــة أو صورية؛ حاضرة أو غائبة؛ متطورة (تتغير أوضاعها ومواقفها) أو جامدة؛ متماسكة (لا تنـــاقض بين صفاتها وأفعالها) أو غير متماسكة؛ مسطحة (صفاتها محددة وأفعالها مرسومة أو متوقعة) أو ممتلئة (مستديرة: متعددة الأبعاد، قادرة علي أن تفاجئ الآخرين بسلوكها" [1].

كما لا تقتصر الشخصيات –أيضا– علي النوع البشري، فقد تكون الشخصية حيوانـــا أو جمادا، وذلك حسب طبيعة الموضوع وطريقة معالجته فتكون الشخصية قناعا يتحدث الكاتب مـــن ورائه ويقدم فكرته أو نقده؛ ليتكون في النهاية ما يعرف "بالمعمار الفني" للقصة ليجسد الكاتب من وراء شخصياته رؤيته وإحساسه بالواقع وتعبيره عنه، وكما عُـــرف عنـــد النقـــاد أن الروايـــة شخصية.

وتصوير الشخصية وإبرازها في صورة محسوسة كثير جدا في كتاب الله، فقد جاء فـــي الذكر الحكيم تصوير صفات المؤمن والكافر بالشجرة كما قال تعالي: "أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَـــرَبَ اللَّـــهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَآءِ* تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِـــإِذْنِ رَبِّهَـــا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ* وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِـــن فَـــوْقِ الأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ"[2].

والكاتب الجيد هو الذي يمتلك خيالا خصبا يتحرر فيه من كافة القيود، ويـــستطيع مـــن خلاله أن يوظف شخصياته وينمي أحداثه ويصل بالقارئ إلي لحظة التنوير في ترقـــب وشـــغف جم، وهو الذي يزرع من خلال قصصه معانٍ وأهداف سامية.

والرافعي كاتب أوتي من جزالة اللفظ وقوة التعبير وفصاحة البيـــان مـــا هيـــأه لرســـم شخصياته بصورة فنية دقيقة، والوقوف معها علي أصدق التعابير والمشاعر تلـــك القـــوة التـــي تفرض نفسها لغزو قلب القارئ وعقله حين الولوج لقراءة تلك المقالات فينفعل معهـــا مؤيـــدا أو

---

١) معجم مصطلحات نقد الرواية: د. لطيف زَيتوني، ص ١١٤.

٢) سورة (إبراهيم)، ص ٢٤-٢٦.

معارضا أو متألما، وهو في النهاية لا يستطيع إلا أن يستزيد من تلك القراءات التي تصقل فكره وشخصيته وثقافته.

وما كان ذلك إلا أن الرافعي فنان أديب قبل أن يكون أديباً فناناً، فهو لا يكتفي بالرؤية الظاهرية للأشخاص والأشياء إنما يغوص في أعماقها مكتشفا جمال بواطنها ليظهرها للقارئ في ثوب قشيب فيمتع بها عقله ووجدانه ذلك أن الأديب لا يجب أن يكتفي "بالنظرة السريعة الظاهرية، وإنما عليه أن يغوص إلي الأعماق ليكتنه السر، ويكشف عن الحقيقة، ونستطيع أن نقول: إن المرحلة الأولي في كل فن هي أن يكون المرء ذا بصيرة نفاذة وذا رؤي وخيال، فإذا وجدت البصيرة والرؤية والخيال وجد الفنان" [1].

ففي مقالات وحي القلم نجده يقف مع شخصيات عدة، كشخصيته هو حين يكتب ويتأمل، أوحين يحزن أو يفرح، بالإضافة للعديد من الشخصيات التي وقف عليها كشخصيات النساء والشباب والأطفال حال فرحهم وحزنهم، حال معاناتهم وأَمَلِهم، وكذلك شخصيات الأمراء والمدَّعين والمتسولين وغيرهم ممن سأقف معهم –بإذن الله– ليتسنى لنا أن ننهل من فيض أدبه وفنه.

<u>أولا: وصف الذات</u>

ليس أيسر علي المرء من وصف ذاته، فالإنسان كما قال الله عنه: "بَلِ الْإِنسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ"[2] ، لكن أي تعبير أو وصف للذات يقال عنه أنه وصف أدبي؟ ومن هنا نجد أن الرافعي قد وقف علي حالات عدة لشخصيته فها هو ذا يقول واصفا سلامة صدره من النفاق والرياء:

"لما ظهر كتابي(وحي القلم) حملت منه إلي فضلاء كتابنا في دور الصحف والمجلات أهديه إليهم؛ ليقرءوه ويكتبوا عنه، وأنا رجل ليس في أكثر مما في، كالنجم يستحيل أن يكون فيه مستنقع؛ فما أعلم في طبيعتي موضعا للنفاق تتحول فيه البصلة إلي تفاحة، ولا مكانا من الخوف

---

١) المسرحية نشأتها وتاريخها وأصولها: عمر الدسوقي، دار الفكر العربي، د. ط، د. ت، ص٢٩٨.
٢) سورة القيامة: آية(١٤).

تنقلب فيه التفاحة إلي بصلة، ولست أهدي من كتبي إلا إحدى هديتين: فإما التحية لمن أثق بأدبهم وكفايتهم وسلامة قلوبهم، وإما إنذار حرب لغير هؤلاء!" (١).

فها هو ذا الرافعي يعمد في وصفه إلي باطن نفسه؛ ليوضح لنا الفكرة التي توحي بسلامة صدره، فهو لا يحمل الضدين معا إما محب وإما كاره وهو حين يعمد إلي ذلك يختار من الألفاظ القوية، والجمل الخيالية المعبرة كقوله: (كالنجم يستحيل أن يكون فيه مستنقع) حيث وصف نفسه في أنفة وعزة بالنجم المرتفع الذي لا تتخطاه الرقاب، ثم وضَّح استحالة أن يُتخيل ولو مستقبلا تغير صدره وتقلبه بقوله: (يستحيل أن يكون فيه مستنقع) فهذا النجم المرتفع وتلك المستنقعات المنخفضة من الأرض شتان أن يكون بينهما تناسب ووفاق، هذا بالإضافة لذكره كلمتي(التفاحة والبصلة) في محاولة منه لإبراز الصورة لذهن القارئ، فهو حين يقرأ يُدرك الفرق الكبير بينهما، فالتفاحة ثمرة طيبة المذاق، حلوة الرائحة، والبصلة نبات لاذع المذاق، كريه الرائحة، وهو هنا بتلك المفاضلة بينهما يثبت فكرته ويؤكدُها بطيب ونقاء سريرته.

أما الرافعي حال تعبيره عن حزنه أو فرحه فهو عالم آخر من الكنوز والدرر الأدبية، والصور البلاغية فها هو ذا حين يُقبل علي الدنيا ويبتهج لأسباب السعادة فيها، وليس أسعد علي قلب الأب من رؤية أبنائه في مواكبهم الملكية يوم زفافهم نجده في حالة من رقة العواطف، وانسياب المشاعر، وتطُّلع القلب بين الفرح والرجاء، وليس أدل علي ذلك من وصفه موكب ابنته وهيبة يوم زفافها قائلا:

"وعرش الورد كان جديدا عند نفسي علي نفسي، وفي عاطفتي علي عاطفتي، ومن أيامي علي أيامي؛ نزل صباح يومه في قلبي بروح الشمس، وجاء مساء ليلته لقلبي بروح القمر؛ وكنت عنده كالمساء أتلألأ بأفكاري كما تتلألأ بنجومها؛ وقد جعلتني أمتد بسروري في هذه الطبيعة كلها، إذ قدرت علي أن أعيش يوما في نفسي؛ ورأيت وأنا في نفسي أن الفرح هو سر الطبيعة كلها، وأن كل ما خلق الله جمال في جمال، فإنه تعالي نور السماوات والأرض، وما يجئ الظلام مع نوره، ولا يجئ الشر مع أفراح الطبيعة إلا من محاولة الفكر الإنساني خلق أوهامه في الحياة، وإخراجه النفس من طبائعها، حتي أصبح الإنسان كأنما يعيش بنفس يحاول أن يصنعها ساعة، فلا يصنع إلا أن يزيغ بالنفس التي فطرها الله"(٢).

---

١) وحي القلم: مصطفي صادق الرافعي، دار ابن الجوزي، ط١،٢٠١٥، ج٣، ص١٦٥.
٢) وحي القلم، ج١، ص٣٠.

فها هو ذا الرافعي يصف يوم عرس ابنته البكر وهيبة ، ويسلط ريشته الفنية علي جوانب عدة من هذا اليوم المميز، فيساير شعور الأبوة من أول وهلة من بزوغ فجر هذا العرس، فيصف لنا كيف خالجت تلك المشاعر الجياشة روحه وقلبه حتي كسته بفرحة عارمة تغيَّر لها نفسه وعاطفته وأيامه، والكاتب في هذا يستخدم أسلوب العطف في قوله: (جديدا عند نفسي علي نفسي، وفي عاطفتي علي عاطفتي، ومن أيامي علي أيامي) ليبرهن علي شمول تلك الفرحة لجميع جوانبه.

كما نلحظ هنا استخدام الرافعي للموسيقى اللفظية التي تناسب حالة الفرح ولا عجب في ذلك، إذ "إن الروائي الحق هو الذي يعرف قبل كل شيء بعضا من أسرار الحياة؛ ولكنه أيضا رجل يلجأ في التعبير عما يعلم، إلي موسيقي لفظية يستخدمها بطبيعته، فيتميز بها كأمارة خفية لخصائص نفسه"(١).

وهو دقيق حين يصف معبرا عن تلك المشاعر وذلك في قوله: (جديدا) حيث إن هذا العرس هو عرس ابنته البكر(وهيبه) فهي مشاعر جديدة علي نفسه –إذن– وعلي قلمه أيضا، كما نجد الرافعي حين أراد التعبير عن تلك الشاعر المبهجة استخدم لها من الألفاظ والرموز الموحية الدالة علي تلك المعاني مثل: (روح، والشمس، والقمر، والنجوم، وتتلألأ) فقد أسقط الأديب هنا ظلاله النفسية التي توحي بالفرح، فرموزه الجزئية هنا تحمل دلالات الفرح وتدل علي البعث والحياة وتبث الأمل في الوجدان.

ويقف الكاتب متأملا حين يختار من اللغة جملا تدل علي أوصافه كقوله: (نزل صباح يومه في قلبي بروح الشمس، وجاء مساء ليلته لقلبي بروح القمر؛ وكنت عنده أتلألأ بأفكاري كما تتلألأ بنجومها)، فكأن الصباح حلَّ ضيفا عنده كما صارت ابنته في هذا اليوم عنده ضيفة مغادرة بيت أبيها إلي بيت زوجها، وهو نزول حافل ومريح أيضا يبعث علي الأمل والحياة كالشمس التي ترسم الحياة علي الأرض كلها، ثم نراه يرسم ختام يومه بمشاعر القمر الرقيقة التي تبعث علي الهدوء والاسترخاء بعد يوم حافل، وهو في استخدامه اللغة وقواعدها يستطيع تطويعها كيفما أراد وهو ما نلحظه في استخدام حرف الجر(في) مع نزل، وحرف (اللام) مع جاء.

---

١) فن القصة: محمد يوسف نجم، دار بيروت، د. ط، ١٩٥٥م، ص١١١،١١٠.

وهو يحاول أثناء ذلك أن يثبت فكرة الجمال، وأن السعادة مرهونة بنظرة الإنسان للكون حوله، فإن كان المرء منا سعيدا نظر للكون كله بعين الفرح وإلا رأي الوجود كئيبا، وتلك حقائق أُثبتت في علم النفس فها هو ذا الطبيب النفسي (ألبرت إيلليس) يثبت في كتابه: "أن الاضطراب إلي حد كبير من صنع الإنسان نفسه...إن الاضطراب لا يطرأ علي الإنسان أو أن هذا الأخير يصاب به علي نحو سلبي، بل هو من يوجد أسباب الاضطراب شعوريا ولا شعوريا"[١].

ولا شك أن الكاتب الطبيب هنا قد أغفل الفروق الفردية في مواجهة الاضطرابات والأحداث الحياتية، إذ تتحكم فيها عوامل كثيرة كطبيعة الشخصية وقدرتها العصبية، وقبل ذلك ما يتربي عليه الإنسان من قيم دينية وقدوة نبوية ينشأ عليها، وهو ما أراد الرافعي اثباته وغرسه في نفوس القراء أن تتلألأ حياتهم بنور الإيمان الذي يوهب لهم الضياء في أحلك لحظات الحياة ظلمة.

ليحلق بنا الأديب بعد ذلك من فرحة إلي أخري، فيبث لنا مشاعره في تلك اللحظات الفارقة من حياته قائلا: "إن يوما كيوم عرش الورد لا يكون من أربع وعشرين ساعة، بل من أربعة وعشرين فرحا؛ لأنه من الأيام التي تجعل الوقت يتقدم في القلب لا في الزمن، ويكون بالعواطف لا بالساعات، ويتواتر علي النفس بجديدها لا بقديمها"[٢].

لنجده بعد ذلك يضع خاتمة مناسبة لسرد هذا الحدث الجديد علي قلبه، وهو أن هذا اليوم لم يمر عليه كسائر أيامه إنما هي الأفراح تتري واحدة تلو الأخرى علي قلبه، وتتوقف عندها عقارب الساعة لتملأ يومه وليله بطاقة هائلة من النور والسرور، ويحل محلها دقات من الفرح والسعادة، فهو يوم مميز بكل ما فيه، وليس فيه ما يملأ القلب بهجة وسرورا، وهذا ما عبر عنه باستخدام النفي المتكرر لتأكيد فكرته كقوله: (يتقدم في القلب لا في الزمن، ويكون بالعواطف لا بالساعات، ويتواتر علي النفس بجديدها لا بقديمها).

ولا عجب في ذلك أن كان هذا حال الرافعي يوم زفاف ابنته وهو الذي قال عنه صديقه مادحا ذلك فيه قائلا: "فهو زوج كما يجب أن يكون الزوج، وأب كما ينبغي أن يكون الأب..يعرف واجبه لزوجه وأولاده، فما هو إلا أن يفرغ من عمله حتي تراه بين أهله مثلا عاليا

---

١) إجعل حياتك سعيدة: ألبرت إيلليس، دار العربية للعلوم، ط١، مطبعة المتوسط، ٢٠٠٤م، ص٣١.
٢) وحي القلم، ج١، ص٣٠.

من الحب والوفاء. وأنا ما عرفت أبا لأولاده كما عرفت الرافعي؛ إذ يتصاغر لهم ويناغيهم ويدللهم ويبادلهم حبا بحب، ثم لا يمنعه هذا الحب الغالي أن يكون لهم أبا فيما يكون علي الآباء من واجب التهذيب والرعاية والإرشاد ناصحا برفق، مؤدبا بعنف حين لا يجدي إلا الشدة والعنفوان"[1].

تلك هي المشاعر والعواطف التي تسيطر علي الكاتب حال سعادته، وهذا ما يختلجه حال فرحه، وهو علي النقيض من ذلك إذا بدا متأملا في الدنيا وزوالها، متطلعا علي الآخرة وأبديتها، فنجده في موقف مهيب تخشع له الأفئدة الحية والعقول المبصرة كهذا الموقف الذي وصف فيه ذاته وهو علي شفير القبر قائلا: "ذهبت في صبح يوم عيد الفطر أحمل نفسي بنفسي إلي المقبرة، وقد مات لي من الخواطر موتي لا ميت واحد؛ فكنت أمشي وفي جنازة بمشيعيها؛ من فكر يحمل فكرا، وخاطر يتبع خاطرا، ومعني يبكي، ومعني يبكي عليه"[2].

فهذا موقف تشابكت أطرافه وخيوطه، رسمه الأديب بصورة متوازنة دقيقة ليثبت لنا أن التأمل الخاشع في الموت يعطي نتيجة واحدة وهي خشوع القلب والجوارح، فها هو ذا يصف ذاته **من الخارج** حال التأمل مع أكثر المشاهد هيبة وخشوعا، ويصور حاله وهو يسير متثاقلا حثيث الخطي لا يقوي علي المسير حتي أنه يحتاج إلي من يعاونه علي ذلك قائلا: (أحمل نفسي بنفسي إلي المقبرة) وهو تصوير لثقل الحركة وتباطؤ الخطوات التي تحمل الحزن والهموم.

وهو في ذلك قد استخدم من الكلمات والجمل ما يتناسب مع الحدث، فهذا حدث الموت (الجنازة) تناسب معها قوله: (مات لي من الخواطر موتي لا ميت واحد) أي أنه في حضرة الموت تفني الدنيا عنده بكل ما فيها من زينة ومتاع ويبقي فقط رهبة الحدث وخشوع القلب والجوارح.

كما نراه يعمد إلي **باطن نفسه** واصفا حاله قائلا: (فكنت أمشي وفي جنازة بمشيعيها) وهو ما يدل علي فراغ قلبه من نبضات الحياة وزخرفها عدا هذا الخاطر، ليكمل رسم مشهد الجنازة الذي يحيط به في سائر كلماته وعباراته قائلا: (فكر يحمل فكرا، وخاطر يتبع خاطرا، ومعني يبكي، ومعني يبكي عليه) وهو كما نري رسما دقيقا لحالته متماشيا مع الحدث الذي يحيط

---

١) حياة الرافعي: محمد سعيد العريان، ط:٣، ١٣٧٥هـ-١٩٥٥م، ص٦١،٦٢.
٢) وحي القلم: ج٢، ص١٢٧.

به، فكما أن الميت يُحمل علي الأعناق ويتبعه مشيعوه إلي المقبرة في حالة من الحزن والبكاء، هكذا صور الأديب حاله وحال فكره وخواطره علي نفس هذا المنوال ليطابق الحدث بكل تفاصيله، وهو ما يدل علي براعة الرافعي التصويرية والتخيلية.

ولكي لا يظن أحد أن هذا الأمر عارض عليه في هذا الموقف لتأثره برحيل الفقيد ينفي الرافعي عن ذاته هذا الأمر قائلا: "وكذلك دأبي كلما انحدرت في هذه الطريق إلي ذلك المكان الذي تأتيه العيون بدموعها، وتمشي إليه النفوس بأحزانها، وتجئ فيه القلوب إلي بقاياها. تلك المقابر التي لا ينادي أهلها من أهليهم بالأسماء ولا بالألقاب، ولكن بهذا النداء: يا أحبابنا، يا أحزاننا!"(١).

فيُلبس هنا ذاته صفة الديمومة حال المرور فقط بتلك البقاع فضلا عن السير بجنازة من يحب، متأملا متعجبا من حال الدنيا وفنائها وسكان القبور وحالهم، وقد أكد فكرته تلك في أكثر من موضع موضحا ذلك بقوله: "وأنا منذ مشيت في جنازة أمي –رحمها الله– لا أسير في هذا الطريق مع الأحياء، ولكن مع الموتى، فأتبع من الميت صديقا ليس رجلا ولا امرأة، لأنه من غير هذه الدنيا؛ وأمشي في ساعة ليست ستين دقيقة، لأنها خرجت من الزمن؛ ولا أري الطريق من طرق الحياة، لأنني في صحبة ميت؛ وتصبح للأرض في رأيي جغرافية أخري عَمِيَ الناس عنها لشدة وضوحها، كالألوهية خفيت من شدة ما ظهرت"(٢).

فيوقت لنا تلك الحالة التي صار عليها من الفكر والتأمل حال المرور بالمقابر منذ جنازة والدته، ولعل ما حدا به إلي هذا الفكر الخاشع أن بدايته كانت مع من ملكت قلبه (والدته) فنظرة المحب للأمور ليست كغيره، ثم نجده يصف ذاته في هذا المشهد وقد انسلخ من الدنيا بما فيها إلي عالم آخر من الأموات لا يُسمع فيه صوتا ولا همسا، عالم كل ما فيه يُذِّكر بالله والآخرة فقط، الميزان فيه هو ميزان العمل فقط، ولأن تلك الحالة دائمة في كل موقف مماثل فقد استخدم لها الأفعال المضارعة التي تدل علي التجدد والاستمرار في قوله: (أسير، أتبع، أمشي، تصبح).

ثم يكمل الرافعي حديثه مزيلا لهذا الإبهام الذي قد يعتري القارئ متعجبا سائلا نفسه قائلا: ما الذي يدفع بالرافعي لزيارة تلك البقاع في مثل هذا اليوم المبهج (يوم العيد)؟! فيكشف هذا

---

١) نفسه: ج٢، ص١٢٧.

٢) نفسه، ج٢، ص١٣٩،١٣٨.

الغموض عنه مجيبا بقوله: "ذهبت أزور أمواتي الأعزاء وأتصل منهم بأطراف نفسي، لأحيا معهم في الموت ساعة أعرض فيها أمر الدنيا علي أمر الآخرة، فأنسي وأذكر، ثم أنظر وأعتبر، ثم أتعرف وأتوسم، ثم أستبطن مما في بطن الأرض، وأستظهر مما علي ظهرها"[١].

وهو ما يُظهر أن الرافعي كان متأثرا بتلك العادات المجتمعية، والتي يزور فيها الناس تلك البقاع في تلك المناسبات الدينية ظنا منهم مشاركتهم للأهل والأحباب لتلك الأعياد والمواسم، لكنه مع ذلك يصف ذاته في هذا اليوم المبهج حال زيارته لتلك المقابر بسيطرة مشاعر الحزن والأسي عليه مما يدل علي أن تلك الشعائر الدينية لم تكن لتشفع لديه إذا وافقت مروره أو زيارته لتلك البقاع قائلا: "وجلست هناك أشرف من دهر علي دهر، ومن دنيا علي دنيا، وأخرجت الذاكرة أفراحها القديمة لتجعلها مادة جديدة لأحزانها؛ وانفتح لي الزمن الماضي فرأيت رجعة الأمس، وكأن دهرا كاملا خلق بحوادثه وأيامه، ورفع لعيني كما ترفع الصورة المعلقة في إطارها"[٢].

وكما نلحظ أن الشخصية تقوم بأداء وظيفة متنوعة في عالم الكاتب الخيالي، كما تهتم بالعنصر البشري وقضاياه، وتكشف الشخصية عن الصلة التي بينها وبين الموضوعات العامة، كما أن سلوك الشخصية تمهد لوقوع الأحداث وتبرز تطورها، ف" من الخطأ الفصل بين الشخصية وبين الحدث، لأن الحدث هو الشخصية وهي تعمل أو هو الفاعل وهو يفعل. فلو أن الكاتب اقتصر علي تصوير الفعل دون الفاعل لكانت قصته أقرب إلي الخبر المجرد منها إلي القصة، لأن القصة إنما تصور حدثا متكاملا له وحدة، ووحدة الحدث لا تتحقق إلا بتصوير الشخصية وهي تعمل"[٣].

كما يلاحظ استخدام الرافعي للمونولوج الداخلي فنراه يجرد من وحيه أناسا خياليين يحاورهم ويشاركهم مشاعره، ويجيب علي تساؤلاتهم المتخيلة، إذ أن "الكاتب الذي يؤثر الطريقة التحليلية، طريقة الوصف الخارجي، لا يستطيع أن ينحي الحوار جانبا، لأنه يكسب شخصياته وحوادثه حرارة وتدفقا وصدقا" [٤]، مثل قوله ردا علي ذلك: "أعرف أنهم ماتوا، ولكني لم أشعر

---

١) وحي القلم: ج٢، ص١٢٧.

٢) نفسه: ج٢، ص١٢٧.

٣) فن القصة القصيرة: د. رشاد رشدي، مكتبة الأنجلو المصرية، ط١ ١٩٥٩م، ط٢ ١٩٦٤م، ص٣٠.

٤) فن القصة: محمد يوسف نجم، ص١٣.

قط إلا أنهم غابوا؛ والحبيب الغائب لا يتغير عليه الزمان ولا المكان في القلب الذي يحبه مهما تراخت به الأيام؛ وهذه هي بقية الروح إذا امتزجت بالحب في روح أخري: تترك فيها ما لا يمحي لأنها هي خالدة لا تُمحي"[١].

وهو مع ذلك يضفي علي ذاته صفة الوفاء لأهله وأحبابه مهما غابوا عن ناظريه وواراهم الثري وذلك في قوله: (والحبيب الغائب لا يتغير عليه الزمان ولا المكان في القلب الذي يحبه).

هكذا كان حال الرافعي من التفكر والتدبر، فهو حين يُعمل فكره في الكون حوله ينأى عن الزبد إلي ما ينفع الناس. وعن تلك الحالة من التأمل وصف ذاته قائلا: " جلست في المقبرة، وأطرقت أفكر في هذا الموت. يا عجبا للناس! كيف لا يستشعرونه وهو يهدم من كل حي أجزاء تحيط به قبل أن يهدمه هو بجملته"[٢].

وفي ختام تلك النقطة نستطيع القول أن:

الرافعي كان يعمد في سرد مقالاته إلي الأسلوب القصصي، كقصة إهداء كتابه لمن يثق بهم، وقصة زواج ابنته، وقصة زيارته للمقابر، ولكن "كتابة القصة علي هذا النحو المستمد من حياة الكاتب لاتعد ترجمة ذاتية له بالمعني الدقيق؛ لأنه يضيف إلي تجاربه تجارب أخري محيطة، ولكنها علي كل حال تعد تعبيرا عن نفسه"[٣]. هذا إذا وصف الرافعي ذاته، أما حين يعمد إلي وصف شخصيات الآخرين فهو قوي الملاحظة، دقيق اللفظ، يحسن استخراج مكنون الصدور وعرضها في لوحة فنية تعمل في عقل القارئ ولُبِّه، وذلك مثل وصفه لأحوال الأطفال المختلفة من يتم وغني وفقر وتشرد ونعمة وغيرها.

ثانيا: وصف شخصيات الأطفال:

أ/ وصف شخصية الأطفال الأيتام

في مشهد مأساوي حين ماتت زوجة أحد أصدقاء الرافعي وبينما هو في منزله يواسيه إذ دخل عليه أكبر الأبناء، وفي وصفه أخذ الرافعي يُعمل ريشته ويظهر أوجاعه في صورة حسية

---

١) وحي القلم: ج٢، ص١٢٧.

٢) وحي القلم، ج٢، ص١٢٧.

٣) الترجمة الشخصية: شوقي ضيف، دار المعارف، ط٤، د. ت، ص١٣.

جلية قائلا: "وجاء أكبر الأطفال الخمسة، وكأنه ثمانية أرطال من الحياة لا ثمانية أعوام من العمر، جاء إلينا كما يجئ الفزع لقلوب مطمئنة، إذ كان في عينيه الباكيتين معني فقد الأم!"[١].

وفي رسم تلك الشخصية اليتيمة أبدع الأديب في تجسيد الإحساس الداخلي لهذا الغلام، إذ استخدم الرمز في قوله: (كأنه ثمانية أرطال من الحياة لا ثمانية أعوام من العمر) والرطل هو: وحدة قياس الوزن وكتلة الأجسام الصلبة، وهو ما يرمز به الأديب لضآلة جسد هذا الغلام وصغر حجمه قياسا بحجم الحياة كلها علي خلاف إذا قيس من عمره ثمانية أعوام إذ متوسط عمر الفرد مهما طال فهو قصير، وفيه دلالة علي ثقل الألم الذي يكتنف هذا الصبي من كل جانب، والأديب الحاذق هو الذي يجيد استخدام الرمز، إذ "تظهر أهمية الرمز في الأدب عامة والشعر خاصة، فمن خلاله تتضح قدرة الشاعر في السفر إلي أبعد مما هو مطروح في الواقع المحسوس...وبذلك تكون دلالة الرمز قد ارتقت في الأدب لتشير إلي مدلول الكلمة أو العبارة في قالب إيحائي غني بالتجربة الشعرية للمبدع"[٢].

أما عن رسم حركة المجيء في قوله: (جاء إلينا كما يجئ الفزع لقلوب مطمئنة) ففيه تجسيد لعلامات الخوف والذعر البادية علي وجه هذا الغلام لفقده أمه، وكأن تلك المشاعر الخفية أضحت جلية للعيان، فلا يمكن للمبصر أن يخطئها. كما جسد المعني المعنوي لفقد الأم وأبرز الإحساس الداخلي في قوله: (إذ كان في عينيه الباكيتين معني فقد الأم).

ولا يزال الأديب يمضي مسترسلا في وصف شخصيته، مستقرئاً لوجه الغلام، مستنطقا ما يدور به قائلا: "وطغت عليه الدموع فتناول منديله ومسحها بيده الصغيرة، ولكن روحه اليتيمة تأبي إلا أن ترسم بهذه الدموع علي وجهه معاني يتمها!"[٣].

وهنا يبدو علي الأديب تأثره بالقرآن الكريم في استخدامه لبعض الكلمات القرآنية الموحية في قوله: (طغت عليه الدموع) فلفظ طغي مستوحى من قوله تعالي: " إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ"[٤]. وهو ما يوحي بكثرة البكاء وتجاوزه عن حده المعروف وكأنه الطوفان،

---

١) وحي القلم، ج٢ ،ص١٤٠.

٢) الرمز في الشعر الفلسطيني المعاصر (فواز عيد ومحمد القيسي وأحمد دحبور) أنموذجا: رُلى يوسف صبحي عصفور، رسالة دكتوراه، اللغة العربية وآدابها، الجامعة الأردنية، ٢٠١٣م، ص١١.

٣) وحي القلم: ج٢، ص١٤٠.

٤) سورة (الحاقة)، آية(١١).

وهو ما يدل علي عظم الألم النفسي والجسدي البادي علي جسد هذا الغلام الصغير والذي يفوق قدرته وطاقته، ليكمل الأديب بعد ذلك بناء مشهده قائلا: (مسحها بيده الصغيرة)، فدلالة اليد الصغيرة مع كمية الماء الكبيرة فيه إيحاء بمشقة الحِمل وضعف الحامل، وفيه تجسيد للموقف ورسم حسي للعاطفة الجياشة حتي كأننا نراها ونشعر بها، وهو ما يدل علي براعة الأديب في تجسيد شخصياته ورسم صوره، وترتيب أحداثه.

مشهد يحمل هذا الألم وتلك المعاناة لابد أن تأتي ألفاظه وكلماته بتلك القوة وهذا الإيحاء، وهذا ما فعله الرافعي مستخدما تعاقب الجمل الماضية مثل:(طغت، تناول، مسح) وقد ساهمت تلك الأفعال بدورها علي رسم هذا الموقف الموجع.

ثم أخذ يعدد بعد ذلك ويرصد أفعاله الظاهرية التي تجمع بين الحزن والرجاء قائلا: [1]

- ثم تطير من عينيه نظرات في الهواء، كأنما يحس أن أمه حوله في الجو ولكنه لا يراها!.
- ثم يرخي عينيه في إغماضة خفيفة، كأنما يرجو أن يري أمه في طويته!.
- ولا يصدق أنها ماتت، فإن صوتها حي في أذنيه لا يزال يسمعه من أمس!.
- ثم يعود إلي وجهه الانكسار والاستسلام، ويتململ في مجلسه، فينطق جسمه كله بهذه الكلمة(يا أمي).

فالأديب هنا يرسم لوحة فنية تموج بالحركة التي تطير في الهواء بحثا عن الأم ورائحتها، ثم حركة الرجوع وارتخاء العينين بهذه الحركة الوئيدة الحزينة (إغماضة خفيفة) تحمل الرجاء... ثم المشهد الصوتي الذي يتردد بصداه في أذنيه إنها حركة : (الانكسار...الاستسلام...التململ...تصدع الجسم كله بالنداء).

فقد رسم الأديب تلك الصورة بدقة عالية استنطق فيها باطن نفس الغلام ليثبت حقيقة واحدة، وهي المعاناة والألم الذي يعتريه لفقد والدته، وكلها أفعال متعاقبة عبر عنها بحرف العطف(ثم) الذي يدل علي التراخي بين كل فعل وغيره، مما يدل علي أن الغلام لا يزال يربط الأمس باليوم جاهدا في تنشيط ذاكرته عسي أن يستيقظ من هذا الكابوس، لكن سرعان ما يصدمه الواقع بحقيقته، فيرتسم علي وجهه الانكسار لما فقد، والاستسلام لما هو آتٍ.

---

١) وحي القلم، ج٢ ،ص١٤٠.

وقد ختمها الأديب بمشهد صوتي متمثل في كلمة (يا أمي) التي لخصت كل المعاني، والأوجاع ، وأظهرت حجم المعاناة التي تقع علي عاتق هذا الغلام وإخوته، والتي سبقت بحرف النداء لشخص لا يمكنه الإجابة عليها قط بعد اليوم مما يزيد من رسم أوجاع الصورة.

كما يلحظ علي الرافعي حال وصفه لبعض شخصياته وبعد عرضه للمشكلة أن يضع النتائج المترتبة عليها، كقوله في هذا المشهد المؤلم: [1].

١- أحس-ولا ريب- أنه قد ضاع في الوجود، لأن الوجود كان أمه.

٢- ولمس خشونة الدنيا منذ ساعة، بعد أن فقد الصدر الذي فيه وحده لين الحياة، لأن فيه قلب أمه وروحها.

٣- وشعر بالذل ينساب إلي قلبه الصغير؛ لأن تلك التي كان يملك فيها حق الرحمة قد أخذت منه وتركته بلا حق في أحد؛ وليس لأحد أمان!.

٤- ولبسته المسكنة، لأن له شيئا عزيزا أصبح وراء الزمان فلن يصل إليه!.

٥- ولبسته المسكنة، لأنه صار وحده في المكان كما هو وحده في الزمان!.

٦- وارتسم علي وجهه التعجب، كأنه يسأل نفسه: (إذا لم تكن أمي هنا، فلماذا أنا هنا؟).

٧- ثم تغرغرت عيناه فيخرج منديله ويمسح دمعه بيده الصغيرة، ولكن روحه اليتيمة تأبي إلا أن ترسم بهذه الدموع علي وجهه معاني يتمها!.

٨- ونهض الصغير ولم ينطق بذات شفة؛ نهض يحمل رجولته التي بدأت منذ ساعة!.

نلحظ هنا حرص الأديب علي رسم مراحل الشخصية وحركة نموها وتطورها، إذ بدأ بمرحلة إحساس الصبي أولا بضياعه في العالم بعد فقد أمه ولأن الاحساس قد يحتمل الصدق والكذب ألحقه الكاتب بفعل يؤكد هذا الاحساس في قوله: (لمس خشونة الدنيا) وفيه تجسيد لتلك الصفات المعنوية بصورة مُحَسَّة بادية للعيان، ومن مرحلة اليقين بفقد الأم توصلا إلي النتائج المترتبة عليها من الشعور الخفيف أولا بالذل بين الناس أن أصبح وحيدا منفردا في عالمه إلي مرحلة طُغيان هذا الشعور عليه حتي أصبح كأنه رداءً له لا يفارقه فمتي خلع ثوبا منه ارتدي الآخر، لينفعل جسد الصبي بعد ذلك نتيجة لِما أَلَمَّ به من هذا الشعور المميت فتتغرغر عيناه

١) وحي القلم، ج٢، ص١٤١.

بالدموع حسرة وألما واستسلاما لهذا المصير لينهض أخيرا من تلك الأفكار التي احتشدت قلبه وعقله ويتحمل مغبة الأمر بتحمل مسئولية الحياة وحدة.

والرافعي هنا أيضا قد أكثر من الجمل الماضية التي تدل علي التحقق والثبوت كقوله: (أحس، لمس، لبسته، ارتسم، تغرغرت، نهض) وقد استخدم للربط بين تلك الجمل حرف العطف (الواو) الذي يستخدم لتشريك ما بعده لما قبله في الحكم، شرط أن يكون بينهما رابط يجمعهم، كما هو الحال في تلك الجمل التي اجتمعت لرسم مشهد واحد، وهو حالة الفتي وسيطرة مشاعر الحزن والأسي عليه.

وفي رسم تلك الشخصية نلحظ دقة الأديب في تتبع مراحلها واستقصاء ملامحها وأوجاعها وهو ما يدل علي امتلاك الأديب لتلك الروح المبدعة، تلك الروح التي "تلتقط من العالم إحدى تجاربها ثم تحاول تشكيلها بالطريقة التي تراها مناسبة، ثم نجد بعد ذلك شخصية أخري اسمها القارئ تنتقي من هذه التجارب ما تراه جديرا بالتوقف لتنجز هي الأخرى تجربة تخصها في ضوء تفاعلها مع العالم الواقع في دائرة رؤيتها، هو منطق الاختيار إذا الي يلتقي عنده الاثنان كلاهما فتتشكل تجربتان تعتمدان معا علي فعل القراءة: الأولي تتعلق بالمبدع الذي يقرأ العالم وذاته بوصفها جزءا منه، والثانية ترتبط بهذا المتلقي الذي يحاول عبر هذا المبدع أن يقرأ صفحات ثلاثة: هذه التجربة التي تشكلت فنا، وذاته، والعالم"[١].

ب/ رسم شخصية الأطفال الفقراء

وفي مقال (أحلام في الشارع) نجد أن الرافعي قد افتتح مقالته بوصف المكان ورسم الشخصيات "وكثيرا ما يتخذ الرافعي من وصف الشخصية أو المكان سبيلا لافتتاح مقالاته، فيجعل القارئ يعايش جو الموضوع، وتفاعلات الأحداث، فيصل إلي فكرته في جلاء ووضوح"[٢].

فها هو ذا يفتتح مقالته بقوله: "علي عتبة البنك نام الغلام وأخته يفترشان الرخام البارد، ويلتحفان جوا رخاميا في برده وصلابته علي جسميهما"[٣].

---

١) بلاغة القصة (مقاربات تطبيقية في القصة القصيرة): د/أحمد يحي علي، د/ أحمد عبد العظيم، د/ علاء عبد المنعم، الأكاديمية الحديثة للكتاب الجامعي، ط١، ٢٠١٠م، ص١٤.

٢) قراءة في أسلوب وحي القلم: محمد السيد موسي، د، ط ، د، ت. ص٥٢.

٣) وحي القلم، ج١ ،ص٦٤.

تعمد الأديب ذكر المكان(البنك) الذي نام أمامه الطفلان ليوحي بالمأساة والتفاوت الطبقي المجتمعي الذي يحيا فيه أبناء المجتمع الواحد، فهذا البنك خزان يفيض بالمال، ورغم ذلك قد نـــام الغلام وأخته في العراء لا يجدون شيئا يستر جسدهم الهزيل أو يدفئ بطونهم الجائعة ولا يفــصل بينه وبينهما سوي جدار. وكأنه بهذا الرسم يسأل المجتمع عمن ضيعهما واغتال براءتهما؟!.

ثم عمد علي رسم المشهد الذي رآه في طريقه بريشته التــصويرية، والتـــي رســـمت علامات الفقر والحاجة علي تلك الأجساد الضعيفة والثياب البالية وذلك في قوله: (يفترشان الرخام البارد، ويلتحفان جوا رخاميا)، فقد رسم الرافعي تلك الصورة مستخدما فيها أفعـــال المـــضارعة ليدل علي أن تلك الحالة ثابتة ملازمة لهما غير عرضية، كما أتت تشبيهاته لتلك الحالة موجعـــة بوصفه مكان النوم وكيف يبدو في برودته وصلابته، ولأن النوم يستلزم الغطاء فقد أتي به الأديب مناسبا لتلك الحالة واصفا له بأنه الرخام الذي يفترشانه هو ذاته الذي يلفهما من كل جانب، ممـــا يدل علي الفقر المدقع الذي لا يملك الفقير فيه مقومات الحياة الأساسية.

ثم نراه يُعَرِّج بعد وصفه لمكان النوم إلي وصف هيئة الطفلين قائلا: "الطفل متكبكب في ثوبه كأنه جسم قُطِّع وركِّمت أعضاؤه بعضها علي بعض، وسجِّيت بثوب، ورمي الـــرأس مـــن فوقها فمال علي خدِّه"(١).

وهذا مشهد تصويري تناوله الرسام بريشته، إذ بدأ بأصغرهما سنًا فقد رسمه الكاتب بكل دقائقه التفصيلية التي توحي بالضعف والهزال حتي كأنه ليس برسم إنسان، وقد أظهر هذا المعني مستخدما ما يدل عليه من الألفاظ الموحية كقوله: (متكبكب، قُطِّع، رُكِّمت، سجيت) وهي ألفـــاظ أتت حروفها مشددة ثقيلة في النطق، وليست خفيفة الوقع كذلك علي الأذن، فهي أقوي في تصوير المراد والإيحاء إذ ترسم صورة مجسمة للحركة العنيفة، والعشوائية في تلك الهيئة، وتثيـــر فـــي خيال قارئها وسامعها صورة ذلك الجسد الضعيف، وحين الموازنة بين السمات الصوتية للكلمـــة وبين سياقها نجد أنها قد جاءت معبرة تمام التعبير عن الفكرة التي سيقت لأجلها، موحية معبـــرة عن معني الفقر والحاجة الشديدة بدرجة فنية عالية، لا تستطيع أن توحي بها دلالتهـــا المعجميـــة وحدها.

---

١) نفسه: ج١، ص١٠٦٤

وهو ما أثبتته الدراسات الأسلوبية الحديثة أن للدلالة الصوتية "أثرًا كبيرًا في التعبير عن المعاني والأفكار والمشاعر؛ كما أن لها أثرًا لا يُنكر في تشكيل الصورة الفنية التي يُستعان بها على تقريب المعاني وتصويرها في صورة بارزة ملموسة يسهل إدراكها وتصورها مما يقرّب المعنى ويوضحه"[١].

كما نلحظ –أيضا– تأثر الكاتب هنا بالثقافة الإسلامية الغزيرة كما جاء في قوله تعالي: "فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ"[٢] أي ألقي بعضهم فوق بعض علي وجوههم...وهو ما رسمه الكاتب بعد ذلك إمعانا في التصوير.

ثم نراه يعرج علي وصف أخته التي تكبره سنا والتي لم تكن بأفضل منه حالا بقوله: "والفتاة كأنها من الهزال رسم مخطط لامرأة، بدأها المصور ثم أغفلها إذ لم تعجبه. كتب الفقر عليها للأعين ما يكتب الذبول علي زهرة: أنها صارت قشا"[٣].

وهنا يعطف علي هيئة الفتي هيئة أخته التي كانت هي الأخرى أشد منه بؤسا، والتي صورها الأديب بصورة خيالية ساهمت في إيضاح المعني كأننا نراه ، فأبرز شدة فقرها عن طريق استقصاء مظهرها الخارجي الذي بدا عليه الضعف وسوء التغذية وذلك في قوله: (رسم مخطط لامرأة) أي أنها كانت مشروع خلق إنسان لكنه لم يكتمل وهو ما يوحي بشدة ضعف الهيئة وكأن هيكلها الخارجي لشدة دقته ورقته خطوطا خُطت، فرسم الشخصية هنا من حيث ضعف الهيئة والفقر المقترن بصغر السن وقلة الحيلة ما يجعل الصورة تفيض بمعاني الحزن والألم.

وقد كان غرض الكاتب من عرض تلك الشخصية إثبات حقيقة واحدة (ألا وهي الفقر المدقع والمعاناة الشديدة، والتفاوت المجتمعي) وقد استطاع الكاتب من خلال تعبيراته أن يجسد هذه الآلام والحسرات ويديرها مع أبطال هذا الحدث، فإذا به يحرك السواكن ويثير العواطف، ويجعل من الصوامت حركة دائبة، وفيها رسالة نقد للمجتمع، ولذلك ربط بين الطفلين بمظهرهما هذا وبين البنك الرخامي، وهذا من شروط القصة الجيدة أن يربط الكاتب بين شخصياته وأحداث

---

١)عبد الحميد هنداوي: مركز تفسير للدراسات القرآنية، دلالات الألفاظ القرآنية(الدلالة الصوتية)، https://:net.tafsir.

٢) سورة (الشعراء)، آية (٩٤).

٣) وحي القلم، ج١ ،ص٦٤.

قصته، وأن يكون للقصة فيما بعد أهدافا وقيما ومعانٍ كالذي قدمه الرافعي من نقد مجتمعي في تلك القصة بغرض الإصلاح وهو ما تحدث عنه د. رشاد رشدي في كتابه (فن القصة القصيرة) قائلا:

"ولكن تصوير الشخصية وهي تعمل لا يكفي بدوره لاكتمال الحدث، فالحدث المتكامل هو تصوير الشخصية وهي تعمل عملا له معني. وليس هذا المعني شيئا مستقلا عن الحدث يمكن أن نضيفه إليه أو أن نفصله عنه فنقول مثلا أن هذه القصة تعالج مشكلة الفقر... أو تثبت أن الفضيلة أقوي من الرذيلة، فكل قصة تعالج ما تعالج فقط، وتعني ما تعني فقط في نطاق الحدث المعين الذي تصوره وليس خارج هذا النطاق، ولذلك فكل حدث له معناه المعين الذي يميزه عن غيره من الأحداث. وهذا المعني ينشأ من الحدث نفسه فهو جزأ لا يتجزأ منه. وبدون المعني لا يمكن أن يتحقق للحدث الاكتمال لأن أركان الحدث الثلاثة وهي الفعل والفاعل والمعني وحدة لا يمكن تجزؤتها فليس للفعل والفاعل قيمة إن لم يكشفا عن معني"[1].

ج/ وصف شخصية الأطفال الأغنياء

أما شخصيات الأطفال من الأغنياء فقد عمد الرافعي في رسمها علي المواجهة بينهم وبين الأطفال الفقراء والمواجهة دائما ما تساعد علي جلاء المعاني وسهولة فهمها لدي القراء، فنجده في مقال (الطفولتان) يرسم شخصية ابن المدير قائلا: "عصمت بن فلان باشا طفل مترف يكاد ينعصر لينا، وتراه يرف رفيفا مما نشأ في ظلال العز، كأن لروحه من الرقة مثل ظل الشجرة حول الشجرة. وهو بين لداته من الصبيان كالشوكة الخضراء في أملودها الريان، لها منظر الشوكة؛ علي مجسة لينة ناعمة تكذب أنها شوكة إلا أن تيبس ونتوقَّح"[2].

وهذا مشهد تقابلي يضاد المشهد السابق، فهو علي النقيض منه في كل شيء...وهو وصف خارجي ظاهري للشخصية له دلالته ومعناه إذ يصف ابن المدير وصفا ناعما رقيقا ينم عن الحياة الرغدة التي يحياها، وكيف يتقلب في ظلال المنعة والنعم، حتي إذا كان بين أقرانه تميز عنهم بسمته وحسن مظهره، وهو ما لا يمكن لأحد أن يراه بين أقرانه ويخطئ الفرق الكبير بينه وبينهم.

---

١) فن القصة القصيرة: د. رشاد رشدي، ص ٥٦،٥٥.

٢) وحي القلم، ج١، ص٥٦.

وقد استخدم لبيان ذلك عدة من الجمل والتي منها: (ينعصر لينا...يرف رفيفا... كأن لروحه من الرقة مثل ظل الشجرة حول الشجرة...وهو بين لداته من الصبيان كالشوكة الخضراء في أملودها الريان، لها منظر الشوكة؛ علي مجسة لينة ناعمة تكذب أنها شوكة إلا أن تيبس) وكلها جمل تدل علي فرط النعمة إذ شبهه بالإسفنجة المُتشبعة ترفا ولينا حتي إذا عُصرت لن تجد منها إلا اللين، كما شبه رقة روحه بالظل الذي يمكن التحكم به من خلال التحكم في مصدر الضوء المسلط عليه، كما يمكن للظل أن ينكسر ويتشوه إذا سقط علي بيئة لا تناسب امتداده، كذلك يمكن لهذا الفتي أن ينكسر إذا حدث إي اضطراب في مورد ترفه ونعمته إذ لا يحتمل مِثْلَهُ خشونة الحياة بعد نعومتها، ليصفه بالنهاية بالعود الأخضر الريَّان بين أقرانه إذ لا يمكن لأحد أن يخطئه لنضارته، ومع ذلك وصفه الأديب بلفظ الشوكة للدلالة علي أن مثله كالشوكة في حلق المجتمع لا يمكن الاعتماد عليه فرغم نضارة مظهره إلا أنه يفتقد كثير من صفات الرجولة والاعتماد علي النفس.

لنجده بعد ذلك يصور السبب الذي دفع به إلي تلك الحياة الرغدة، وهو جاه الوالد، ورفعة منزلته بين الناس وقد صور ذلك بقوله: "أبوه فلان مدير لمديرية كذا، إذا سئل عنه ابنه قال: إنه مدير المديرية. لا يكاد يعدو هذا التركيب، كأنه من غرور النعمة يأبي إلا أن يجعل أباه مديرا مرتين. وكثيرا ما تكون النعمة بذيئة وقاحا سيئة الأدب في أولاد الأغنياء، وكثيرا ما يكون الغِني في أهله غِني من السيئات لا غير!" [1].

وبخلع الرافعي تلك الصفات علي أبيه وضَّح السبب الذي جعل الابن بتلك الصفات المشينة من الكِبر والخُيلاء إذ ترجع عادة أسباب ضعف الشخصية إلي عدة عوامل بيئية ووراثية ومجتمعية تساهم كلها في بناء الشخصية وتطورها وهو ما تحدث عنه وليم ا. هِنرِي في كتابه (استكشف شخصيتك) قائلا: "فمنذ ولدت وأنت تتلقي من الأشياء والناس المحيطين بك، انطباعات معينة تتأثر بها شخصيتك.. فضلا عن أن للعوامل الوراثية والحيوية (البيولوجية) المؤثرة في تكوينك الجسماني دخلا في تقدير السرعة التي تطورت بها، وهذه العوامل بدورها تؤثر في

١) نفسه: ج١، ص٥٦.

شخصيتك إلي حد ما.. ثم أهم من ذلك كله، نوع التجارب التي لقيتها من النـــاس والأشـــياء فـــي محيط بيئتك"[١].

ونلحظ أن الرافعي كثيرا ما يلحق بوصف شخصياته تعقيبا منه علي ذلك كقوله: (وكثيرا ما تكون النعمة بذيئة وقاحا سيئة الأدب في أولاد الأغنياء، وكثيرا ما يكون الغِني في أهله غِنـــي من السيئات لا غير!).

فهو دقيق حين يصدر الأحكام، إذ كان سيكون مأخذا عليه إن قال (والنعمة بذيئة وقاحـــا سيئة الأدب في أولاد الأغنياء)، ولكنه احترس للأمر بذكره لفظ (كثيرا) وهو ما يدل علي دقتـــه في اختيار الألفاظ والجمل التي تخدم فكرته.

ليعرج الأديب بعد ذلك علي رسم صورة أخري تمتد لهذا الخـــيط الحـــزين مـــن النقـــد الاجتماعي، والتي بين من خلالها شدة التباين بين الطبقات الاجتماعية المختلفة واصفا ذلك بقوله: "ولا يغدو ابن المدير إلي مدرسته ولا يتروح منها إلا وراءه جندي يمشي علي أثره فـــي الغَـــدْوة والرَّوحة إذ كان ابن المدير، أي: ابن القوة الحاكمة، فيكون هذا الجندي وراء الطفل المنبه له عند الناس، تفصح شارته العسكرية بلغات السابلة جمعاء أن هذا هو ابن المدير"[٢].

ومن الوصف الظاهري إلي الوصف الحركي الحياتي الذي لا ينفك عن الوصـــف الأول بل هو مرتبط به ومتفاعل معه، فبذكره لهذا الجندي الذي يسير حارسا خلف هذا الصبي قد ساهم في جلاء المعني ووضوحه، ورسم به مشاهد الكبر والتعالي علي الناس إذ هناك قوة تسير خلفـــه لحراسته هو دون غيره، وكأن هذا الغلام المدلل ليس كسائر أقرانه، أو من جنس آخـــر غيـــرهم وهو ما يُشعره بالتميز والرفعة.

وكما عودنا الرافعي دائما علي إبداء رأيه وتعقيبه علي تلك النماذج والصور التي يعمل علي رسمها وإظهار خفاياها وبواطنها، إذ نجده يقف هنا بعد رسمه لتلك الصورة معقبـــا بقولـــه: "ليس لهذا المنظر الكثير حدوثه في مصر إلا تأويل واحد: هو أن مكان الشخصيات فوق المعاني، وإن صغرت تلك وجلت هذه"[٣].

---

١) استكشف شخصيتك: وليم ا. هِنرِي، ترجمة/ عبد المنعم الزبادي، د/ عبد العزيز القوصي، مؤســـسة فـــرانكلين للطباعة والنشر، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، د. ط، د. ت، ص٣٤.

٢) وحي القلم، ج١، ص٥٦.

٣) نفسه، ص٥٧.

وبهذا نري الرافعي يُحمِّل في رسمه لبعض صور شخصياته قضايا ونقدا اجتماعيا للسلبيات التي يرجو أن تتلاشي من مجتمعه إذ تعكس اللغة عنده "الجانب العملي في الحياة؛ إذ تدفع الكلمة كي تكون في خدمة العمل وتصبح أداة للممارسة، فيحاول المتكلم أن يفرض آراءه وأفكاره علي الآخرين مقنعا أو راجيا أو آمرا أو ناهيا أو مجيبا علي من يحاول معه مثل ذلك، وهذه هي الوظيفة الاجتماعية للغة في الحياة"(١).

ثالثا: وصف شخصيات النساء

أما عن وصف شخصيات النساء فقد تناوله الرافعي –أيضا ووقف عليه في بعض مقالاته، إذ "ليست الشخصية مقصورة علي جنس دون آخر؛ ولا علي طبقة دون أخري؛ فكما تكون بين المتعلمين تكون بين غيرهم، وكما تكون بين المدنيين تكون بين القرويين، وكما تكون بين الرجال تكون بين النساء، وكما تكون بين الأغنياء تكون بين الفقراء. ولكل تفكيره وتقاليده وطرقه ومعيشته الخاصة"(٢).

وللرافعي مع المرأة أدب وذوق خاص عُرف به، إذ لا يقف معها إلا "موقفا عفيفا يلمس فيه المعاني ويشكله للقارئ مجسدا حيا ولا يخرج عن حدود الأدب الرفيع الذي يسمو بالأذواق ويربي المشاعر والأحاسيس"(٣).

فلنا أن نتصور هذا الرسم في وصفه لشخصية فتاة ريفية بسيطة لم تَنَلْ حظا من العلم والمعرفة قائلا: "وكانت خضراء جاهلة كنساء القري، بيد أنها تلميذة بارعة للطبيعة التي نشأت فيها وزاولت أعمالها؛ فهي بذلك أقوي نفسا وأشد مراسا من الفتيات المتعلمات؛ إذ اتخذت شكلا ثابتا من أشكال الحياة، والحياة هي صنعتها هذه الصنعة أو أقامتها علي هذه الهيئة، علي حين أن المتعلمات يمضين أيام النشأة وسن الغريزة في التَّلقي عن الألفاظ والكتب، وفي توهم الصور المختلفة للاجتماع دون مباشرتها وفي توقِّي أعمال الحياة بدلا من مخالفتها؛ فيؤول ذلك منهن إلي قوة في التخيل قلما ترضي الحقيقة الإنسانية المؤلمة حين تصادمها يوما ما؛ وتتم الواحدة منهن، ولكن باعتبار أنها تمت تلميذة للمدرسة لا امرأة للحياة بما فيها مما يُعجب وما لا يعجب"(٤).

---

١) علم الأسلوب مبادئه وإجراءاته: صلاح فضل، دار الشروق، ط١، ١٩٩٨م، ص١٩.
٢) الشخصية: محمد عطية الإبراشي، مطبعة المعارف ومكتبها بمصر، ط٤، ١٣٦٣هـ، ١٩٤٤م، ص١٥.
٣) قراءة في أسلوب وحي القلم: محمد السيد موسي، ص٦٢.
٤) وحي القلم، ج٣ ،ص٨٢.

فقد عمد الأديب هنا أولا إلي وصف حالتها التعليمية وقد نفي عنها ذلك، ووصفها بلفظ (جاهلة)، أي: لم تنل حظا من العلم والثقافة، وقد علل لذلك بقوله: (كنساء القري) وهو تشبيه شبه فيه حالتها التعليمية بحالة نساء القري في هذا العصر، وهو وصف نقدي يسلط الكاتب الضوء فيه علي داء اجتماعي استشري في تلك البيئة وفي هذا الزمن، فقد عُرف عن أهل القري قديما التزامهن المنازل، وعدم التحاقهن بالمدارس والجامعات، وزواجهن في سن مبكرة عكس فتيات الحضر وما عُهد عنهن من الخروج والالتحاق بالمدارس والجامعات، وهو مع ذلك لم يجردها من الجمال الروحي والصفات الشخصية الخاصة التي تمتلكها وتعطيها ملمحا جماليا خاصا إذ رمز لها بلفظ (خضراء) للدلالة علي النضارة والشباب والحيوية وهو ما يناسب –أيضا– طبيعة الحياة الريفية التي تحياها، وهو استعمال موفق للغة " إذ اللغة –في أصلها– رموز أصطلح عليها لتثير في النفس معاني وعواطف خاصة. والألوان والأصوات والعطور تنبعث من مجال وجداني واحد. فنقل صفاتها بعضها إلي بعض يساعد علي نقل الأثر النفسي كما هو أو قريب مما هو، وبذا تكمل أداة التعبير بنفوذها إلي نقل الأحاسيس الدقيقة"[1].

ولم يكتف بذلك إنما وصفها بأنها أشد منهن مراسا وأصلب قوة وبأسا، وأسند الأمر في ذلك للطبيعة الريفية التي درجت فيها تلهو وتلعب في صغرها وتعمل وتكد في شبابها، وتواجه الكثير من الأمور والمتاعب الحقيقية علي أرض الواقع لا في الكتب والمجلات كأقرانها من المتعلمات كما وصف، وهو ما فيه نقد أيضا للواقع التعليمي المُعاش الذي يغلب فيه الجانب النظري علي التعليمي.

ومن هنا يتضح لنا رأي الرافعي في الشخصية الحقة كما يجب أن تكون، والتي يجب أن تصقل من خلال الممارسة والاحتكاك بأرض الواقع والتعامل المباشر مع الحالات والمواقف، فنراه هنا قد أحسن وصف المتناقضات التي جُمعت في تلك المرأة بقوله: (جاهلة، بيد أنها تلميذة بارعة للطبيعة التي نشأت فيها) فقد جمع بين الجهل الذي هو عيب مقيت، ثم أعقبه بوصفها تلميذة بارعة وفيه تشبيه للطبيعة الريفية التي نشأت فيها بالمعلم الذي يغرس العادات والتقاليد والأعراف في نفوس طلابه لكن من وحي الواقع والاحتكاك المباشر.

---

١) النقد الأدبي الحديث: د. محمد غنيمي هلال، ص٣٩٥.

ومن هنا تبرز صفات الرافعي الشخصية في مقالاته كونه مصلحا اجتماعيا من وراء شخصياته، إذ اتخذ من رسم تلك الشخصية النسائية القروية نموذجا لنقد الواقع والمجاهدة في تغييره وإصلاحه.

ونراه هنا لا يزال مسترسلا في رسم شخصيته التي جعلها تبدو كلوحة فنية بديعية من صنع الطبيعة تعمل فيها وتبدع، وتضيف وتمحو بقوله: "وكانت خضراء أشبه بدورة النهار: تفتح أجفانها علي أشعة الفجر كل يوم، ولا تزال نهارها في دأب وعمل، فنفي ذلك عن أخلاقها ما يجلبه السكون من الخمول والميل إلي العبث والدعابة، وحصلت لها من الحياة حقيقة عرفت منها أن المرأة عامل من أكبر العوامل في النظام الإنساني؛ عليه أن يصبر علي الكد والتعب إذا أراد أن يظهر بطبيعته الحقيقية لا بطبيعته المزورة المصنوعة"(١).

استخدم الرافعي من التراكيب التصويرية ما يخدم رسم شخصيته كقوله: (أشبه بدورة النهار) إذ شبهها بدورة النهار التي تبدأ مع بزوغ الفجر إلي غروب الشمس وهو مشهد تصويري حركي تبدو فيه الشخصية ككتلة من النشاط والحيوية، تعمل في غير كلل أو ملل، وتلك الصفات معهودة عند أهل الريف الذين يعملون في حرفة الزراعة، وتربية المواشي وما يتطلب هذا من زيادة في ساعات العمل والكفاح علي غرار ما يتصف به أغلب أهل الحضر، فخلع علي شخصيتها من الصفات الحسنة التي تضفي عليها بهاء وجمالا من نوع خاص.

وبذلك وضع الرافعي أمام المتلقي لوحة طبيعية حية تنبض بالنشاط والحياة، وصورة بديعة تفيض من عبق الريف وجمال طبيعته النضرة وهدوء أهله وبساطة حياتهم، بالإضافة لخلوها من ضجيج الحياة وصخبها، ليختم معنا رسم صورته بحقيقة أقرتها الفتاة في نفسها وَسَعَتْ علي تحقيقها قائلا: "فعرفت خضراء كيف تقيد طبيعتها من تلقاء نفسها، وتقرها علي الصبر والرضا والسكون إلي حظها الطبيعي والاغتباط به"(٢).

وقد وصل الأديب إلي المثال المرجو في رسم صورته حين ربط بين الصفات الظاهرية والباطنية إذ أسند إلي صفاتها الظاهرية صفات روحية داخلية تزيد من جمال صورتها، كالفطنة في معرفة واكتشاف ذاتها، والعمل علي إخضاع ذاتها للتحلي بالصفات النبيلة من صبر ورضا

---

١) وحي القلم، ج٣ ،ص٨٢.
٢) وحي القلم: ج٣، ص٨٢.

بالواقع وطرق التكيف معه. وهذا ما يميز أسلوب الرافعي "بالقدرة علي الوصف فهو يتمتع ببصر عميق وإدراك واع ودقة ملاحظة في نقل انطباعاته وأحاسيسه عن الناس والأشياء"[١].

ومن أمثلة ذلك أيضا رسمه لشخصية (سلامة جارية سهيل بن عبد الرحمن) والذي قال في وصفها: " سلامة جارية سهيل بن عبد الرحمن المغنية، الحاذقة الظريفة، الجميلة الفاتنة، الشاعرة القارئة، المؤرخة المتحدثة، التي لم يجتمع في امرأة مثلها حسن وجهها، وحسن غنائها، وحسن شعرها" [٢].

فنجده هنا قد استطاع رسم صورة تلك الجارية وهي في قمة ظُرفها وجمالها واصفا إياها بقوله: (الجميلة الفاتنة) فجمالها ليس جمالا عاديا ممن تألفه الأعين وإنما هو جمال الفتنة لمن ينظر إليها فيهيم بها، كما لم يكتف بإثبات جمال المظهر لها فقط، إنما زاد من حسن صورتها إثبات جمال صوتها مع جودة شعرها- أيضا- مما ساهم في وضوح المعني المراد وزاد من حسنها وجمالها.

ولإبراز صورته وفكرته أكثر لم يكتف من ذكر محاسن الخِلْقَة الظاهرية فقط إنما أخذ يعدد تلك الصفات الروحية والشخصية التي تمتلكها في عدد من الألفاظ كقوله: (حاذقة، ظريفة، شاعرة، قارئة، مؤرخة، متحدثة)، وكلها صفات محببة للنفس، وبذلك نجده قد أبدع في وصفها ورسمها بجمعه لحسن الصفات الظاهرية حسن الصفات الروحية أيضا.

هذا إذا عمد الرافعي إلي وصف شخصيات المرأة في مقالاته وصفا ينأى عن الوصف الظاهري الصريح، فيعمد أكثر ما يعمد إلي التركيز علي صفاتها الروحية والشخصية والقليل من الوصف الظاهري الذي لا يخدش حياء القارئ، و قد يتطرق مع ذلك في بعض مقالاته لهذا الوصف الظاهري ويبدع فيه بصورة تبرز المعني المراد وتحفظ علي الكاتب والقارئ حياءهما، ومن ذلك ما قاله واصفا شخصية إحدى الراقصات: "لعوب حسنة الدَّل، مفاكهة مداعبة، تحيي ليلها راقصة مغنية؛ حتي إذا اعتدل الليل ليمضي، وانتبه الفجر ليقبل، انكفأت إلي دارها فنَضَتْ وشْيها، وخرجت من زينتها، وخلعت روحا ولبست روحا، وقالت: اللهم إليك، ولبيك اللهم لبيك. ثم ذهبت فتوضأت وأفاضت النور عليها، وقامت بين يدي ربها تصلي...!"[٣].

---

١) الخصائص الأسلوبية للرافعي في وحي القلم: مكارم الديري، بحوث ومقالات، مج١١، ع٤٤،٤٣، ص٥٥.
٢) وحي القلم، ج١، ص٩١.
٣) وحي القلم، ج١، ص٢٨٧.

نلحظ هنا أن الأديب قد عمد إلي رسم شخصية المرأة المتحررة من القيم والآداب والأعراف المجتمعية، وقد استخدم في رسم تلك الصورة شخصية الراقصة التي تتخذ من صفاتها الأنثوية ككونها (لعوب، حسنة الدّل، مفاكهة، مداعبة) سلاحا لجذب الرجال والشباب إليها.

وبرغم أن شخصية الراقصة توحي للأذهان من أول وهلة طبيعة حياتها ورسمها وهيئتها وحركاتها التي تتخذ منها سلاحا لجذب أنظار الرجال والشباب إليها إلا أن الرافعي استطاع بخياله الخصب وثقافته الإسلامية أن يُحَوِّل تلك الصورة المخزية لأخري تشع بالنور والإيمان، ويرجع السبب في ذلك ما أثبته صديقه محمد سعيد العريان في كتابه عن تلك القصة أن أصدقاء الرافعي حاولا إقناعه لحضور العرض التمثيلي لتلك الراقصة التي هبطت في بلدتهم، ولما اعترض الرافعي أقنعاه بقولهم: "...ولكنها راقصة ليست كالراقصات؛ إنها صوامة قوامة، تصوم الشهر وستة أيام بعده، وتقوم الليل إلا أقله، وتصلي الخمس في مواعيد الخمس؛ وما أحسب رقصها وغناءها إلا تسبيحا وعبادة"[1] ومن تلك الكلمات والجمل رأي الرافعي تلك الراقصة من منظور آخر ومن عدسة مغايرة لكل من شاهدها ومن تلك العدسة رسم صورتها المتدينة التي تمني أن يراها بها ونقلها إلينا بتلك الكلمات في قوله (خرجت من زينتها...خلعت روحا ولبست روحا... اللهم إليك، ولبيك اللهم لبيك... فتوضأت وأفاضت النور عليها...قامت بين يدي ربها تصلي) وهكذا رسم لنا الأديب صورتين مغايرتين لشخصية واحدة، توحي الأولي بما تكون عليه الراقصة من الحسن والدلال ولين الحديث ما يجذب الرجال إليها، والثانية ما تكون عليه المرأة المسلمة المحافظة علي طهارة روحها وإرضاء ربها بما تقوم به من عادات وعبادات وما تتحلي به من أخلاق وقيم.

وهو في ذلك يستطرد في رسم صورتها قائلا: "هي حسناء فاتنة، لو سطع نور القمر من شيء في الأرض لسطع من وجهها. وما تراها في يوم إلا ظهرت لك أحسن مما كانت، حتي لتظن أن الشمس تزيد وجهها في كل نهار شعاعة ساحرة، وأن كل فجر يترك لها في الصبح بريقا ونضرة من قطرات الندي"[2].

نلحظ استخدام الأديب هنا لبعض الرموز كرمز (القمر...الشمس...الفجر...الصبح...ببريقه ونضرته).. وكلها رموز توحي بالهداية ونور الإيمان

---

١) حياة الرافعي: محمد سعيد العريان، ص٢٣٦.

٢) وحي القلم، ج١ ،ص٢٨٧.

والطهر ليدلل عيل نقاء سريرة تلك الراقصة ونقاء فطرتها، إذ لو وجدت من يأخذ بناصيتها لاستقامت.

كما استخدم الرافعي هنا الضمير المنفصل في قوله: (هي حسناء فاتنة) ليؤكد تلك الصفات التي خلعها عليها بهذا الضمير ولكي لا يتوهم أحد أن الكلام التالي يراد به شخصية أخري. كما أتي بالجملة المفسرة في قوله: (لو سطع نور القمر من شيء في الأرض لسطع من وجهها) وهي جملة أتت مفسرة وموضحة لما قبلها وفيها من المبالغة المقبولة التي تزيد المعني وضوحا، والرافعي لا يكتفي بهذا الحد من الرسم إنما يضفي علي جمالها صفة الاستمرارية، فهي دائما ما تزداد جمالا وبهاء، وهذا ما يوضح الصورة ويبرزها.

ولا يزال سائرا في دربه يرسم صورتها ويزيد في أوصافها حتي ختم ذلك بقوله: " فإذا رأيتها بتلك الزينة في رقصها وتثنيها، قلت: هذه روضة مفتنة اشتهت أن تكون امرأة فكانت، وهذا الرقص هو فن النسيم علي أعضائها "[1].

نلحظ أن الرافعي هنا حول القبح في تلك المشاهد الذي يصفها من رقص وانحاء وأوضاع لا تليق إلي جمال؛ وذلك برسمه لتلك اللوحة الفنية والتي صاغها في ألفاظ وجمل وعبارات حولت تلك المعاني والأفعال الدنيئة إلي روضة غناء تحوي من الجمال والبهاء، وكأنه أراد أن يري هذا الجمال فأبدع في وصفه ورسمه، ليضيف في النهاية بعد تلك الصفات الروحية والجسدية صفة جامعة لما سبق بقوله: (روضة مفتنة) أي روضة غناء جميلة تجذب من يراها بل تفتنه بجمالها وعطورها.

وفي النهاية نستطيع القول أن تلك الصورة التي رسمها الرافعي ترجع –لا شك– إلي خياله الذي أراد أن يري الحسن في القبح حتي رسم شخصية تلك الراقصة كما يريدها ويتمناها وهو ما أكده صديقه محمد سعيد العريان قائلا: "كانت علي عين الجميع راقصة تغني؛ وكانت بعينيه عابدة تسبح وتصلي...كان الناس ينظرون إلي الراقصة وهي تفتنُّ في إغراء الرجال بالنغمة والحركة والرَّنْوة الفاتنة؛ وكان الرافعي ينظر في أعماق نفسه إلي صورة أخري رسمها من خياله فقامت حياله تريه ما لا يراه الناس!"[2].

---

١) وحي القلم: ج١، ص٢٨٧.

٢) محمد سعيد العريان: حياة الرافعي، ص٢٣٧.

ليعطينا في المقابل من ذلك صورة المرأة العفيفة التي تحافظ علي شرفها وعفتها رغم فاقتها والمغريات التي تعرض عليها وذلك كما رسم في شخصية بائعة الفجل وهي تجلس جلستها المعهودة أمام بضاعتها في مقاله (أحلام في القصر) قائلا: "ومر في طريقه إلي مصرعه بامرأة تبيع الفجل والبصل والكرات، وهي بادنة وضيئة ممتلئة الأعلى والأسفل، وعلي وجهها مسحة إغراء"(١).

فقد أحسن الأديب هنا وصف المتناقضات التي جمعت في تلك المرأة، فهي رغم بدانتها وضيئة، ويعلو وجهها شيء قليل من الإغراء كما عبر عنه بقوله: (مسحة)، ومن الوصف الظاهري إلي الباطني الذي أكد به علي عفتها وطهارتها، وذلك حين ظن ابن الأمير أنها من إحدى مطامعه وأنها سرعان ما تستجيب لنزواته فكان ردها مفاجئا له غير متوقع كما صور الأديب ذلك قائلا: "غير أنه ما كاد يراودها حتي ابتدرته بلطمة أظلم لها الجو في عينه، ثم هرت في وجهه هريرا منكرا واستعدت عليه السابلة فأطافوا به وأخذه الصفع بما قدم وما حدث، وما زالوا يتعاورونه حتي وقع مغشيا عليه"(٢).

فقد جمع الأديب هنا بين رسم الحركة التي ظهرت في سرعة انقضاض المرأة علي ابن الأمير إذ لم تمهله أو تفسح له المجال حتي (ابتدرته) وقطعت عليه الآمال والأحلام، وبين قوة رد الفعل في لطمها له بقوله: (أظلم لها الجو في عينيه) وهو ما يدل علي شدة انفعالها وحنكها عليه إذ جاء الفعل مناسبا للحدث الذي ألم بها، ومن رسم الحركة وقوتها إلي رسم الصورة الصوتية العنيفة التي أصدرتها المرأة حين هاجمها ابن المدير كما عبر الرافعي قائلا: (ثم هرت في وجهه هريرا منكرا) إذ ألحق بتلك الصورة تفسيرا لها بقوله: (هريرا منكرا) ليؤكد بذلك علي عفتها وطهارتها التي تأبي أن تُمس بريبة مهما كانت المغريات، وهو في ذلك يختم رسم صورته الحركية باستعانة المرأة عليه بالمارة الذين لم يتوانَوْ عن نصرتها ونجدتها حتي أحاطوا به وأوسعوه ضربا لينتهي به الحال بفقده الوعي من شدة ما ناله من العذاب.

---

١) وحي القلم: ج١، ص٧٥.
٢) نفسه: ج١، ص٧٥.

رابعا: وصف شخصيات الشباب

أما شخصيات الشباب التي تناولها الرافعي في مقالاته فقد وقف معها علي حالات عدة، كشخصية الشاب القوي الذي يعتمد عليه أهل قريته، والشاب المدلل وحيد والديه، وبعض الشباب وحالهم مع الحب والزواج، وقد أبدع في تصويريهم جميعا، إذ الشخصية كما وضح د. محمد عطية الإبراشي في كتابه (الشخصية) أنها "صفة نسبية، وقوة سرية، توجد في كل شخص إلي حد ما، وتختلف في نوعها وقوتها باختلاف الأشخاص. وقد تكون بارزة واضحة في بعض الأفراد يشعر بها الإنسان في الحال، وقد تكون كامنة خفية في بعضهم الآخر"[١] ومن هنا قد رسم الأديب الشاب القوي الذي يعتمد عليه أهل قريته قائلا: " علي شاطئ النيل في إقليم الغربية من هذا البر، قرية ليس فيها من جبل، ولكن روح الجبل في رجل من أهلها، فإذا أنت اعتبرته بالرجال قوة وضعفا رأيتهم ينهض فيهم بمنكبيه نهضة الجبل فيما حوله، وهو بطل القرية ولواء كل معركة تنشب فيها بين فتيانها وبين فتيان القري المتناثرة حولها"[٢].

بهذه المداخلة بدأ الكاتب حديثه بوصف المكان الذي دارت فيه الأحداث، وهي إحدى قري محافظة الغربية التي يقطن بها الرافعي، فنراه يصف بعض جغرافية تلك القرية مما يخدم رسم شخصيته بقوله: (قرية ليس فيها من جبل) أي: الجبل المعروف وصفه وهيئته عند الناس، وما ذكر الرافعي تلك المعلومة وما نفاها إلا ليصل بنا إلا رسم شخصية هذا الشاب الذي شبهه بالجبل في قوته وصلابته فبرغم أن القرية لا تملك جبلا بها إلا أنها تملك صفاته في شاب من شبابها والذي أصبح بطلا وملاذا لأهل قريته يلجئون إليه في الشدائد لما عُرف عنه من قوة بأسه وصلابته.

ويستطرد الرافعي في رسم شخصيته بقوله: "ويلقبون هذا الرجل الشديد (بالجمل)؛ لما يعرفونه من جسامة خُلقه وصبره علي الشدائد، واحتماله فيها " [٣].

صفة أخري نحلها الأديب لشخصيته فهو بالإضافة لكونه جبلا في صلابته وقوته وهو رسم ظاهري إلا أنه أيضا كالجمل في صبره وتحمله وضخامة هيئته وهو رسم باطني، وهو

---

١) الشخصية: محمد عطية الإبراشي، ص١٤.
٢) وحي القلم، ج٣ ،ص٨١.
٣) نفسه: ج٣، ص٨١.

اختيار موفق من الكاتب لاختياره هذا الحيوان في التشبيه، ولم لا؟! وقد قال الله –جل جلاله– في محكم كتابه عن خلق الجمل لما فيه من قدرات وآيات: "أَفَلا يَنْظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ"[1]، وبهذا التشبيه الذي يبرز هيئة الشاب الخارجي بضخامة بنيانه استطاع الأديب ابراز الصورة الخارجية.

وقد زاد الرسم وضوحا حين أضاف إلي صورته بعض الصفات المعنوية المهمة في قوله "وكونه مع ذلك سلسل القيادة سليم الفطرة رقيق الطبع؛ علي أنه أبطش ذي يدين إن ثار ثائره، وله إيمان قوي يستمسك به كما يتماسك الجبل بعنصره الصخري، إلا أنه يخلطه ببعض الخرافات "[2].

وتلك إضافة موفقة –أيضا– بإضافة تلك الصفات النبيلة من الذكاء وسلامة القلب والفطرة إليه؛ إذ أن القوي في بنيانه وخاصة في مرحلة الشباب قد يستخدم تلك القوة المفرطة في خدمة نزواته وشهواته وإخضاع الناس له حبا في السيطرة والتملك وهو مالم ينفه الأديب عنه جملة في قوله: "إذ لابد له من بعض الجرائم الشريفة التي يُملِ عليها فرط القوة والمروءة في مثله مع مثله"[3].

ويقصد بالجرائم الشريفة هنا استخدام القوة في الدفاع عن الضعفاء والمظلومين ومناصرة أهل القرية ضد اعتداءات القري المجاورة، فاستخدام القوة قد يؤدي إلي حدوث إصابات خطيرة في الخصم وهو ما يُعد جريمة يحاسب عليها القانون ولكن الغرض منها نبيل إذ استخدمت القوة للدفاع عن الضعفاء لا من أجل السيطرة وفرض القوة.

وهو في المقابل من ذلك يعمد إلي إبراز صورة شخصيته برسمه لشخصية مناقضة لها تماما كوصفه لشخصية ابن العمدة قائلا: "وليس في تلك القرية من بحر، غير أن فيها شابا أعنف طيشا وعتوًّا من الموجة علي بحرها في يوم ريح عاتية، حلو المنظر لكنه مر الطعم، صافي الوجه لكن له غورا بعيدا من الدهاء والخبث"[4].

---

١) سورة الغاشية: آية١٧.
٢) وحي القلم، ج٣ ،ص٨١.
٣) وحي القلم، ج٣، ص٨١.
٤) نفسه، ج٣ ،ص٨١.

فقد بدأ المواجهة بين هذا الشاب وبين الفتي المدلل ابن العمدة علي نفس النهج والطريقة، فهناك شبَّه الشاب بالجبل في صلابته وهنا شبه ابن العمدة بالبحر في ثورته وجماحه وطغيانه، وقد استعان في رسمه بالوصف الخارجي قائلا: (صافي الوجه لكن له غورا بعيدا من الدهاء والخبث) ،أي أن وجهه خال من العيوب والأمراض صاف مشرق تبدو عليه أثر العز والنعمة، لكنك إن أمعنت النظر في وجهه استطعت قراءة ما به من خبث ودهاء.

ولا يزال الرافعي ماضٍ في رسمه مضيفا للوصف أوصافا أخري ليُظهر تباين الشخصيتين تباينا لا يمكن إنكاره قائلا: "وهو ابن عمدة البلدة وواحد أبويه والوارث من دنياهما العريضة، يبسط يده علي خمسمائة فدان، وقد أفسدته النعمة وأهانته عزته علي أهله؛ ولو اجتمعت حسنتان لتخرج منهما سيئة من السيئات بأسلوب من الأساليب، لما وسعها إلا أسلوب نشأته من أبويه الطيبين، تعلم وهو يعرف أنه لا حاجة به إلي العلم، فجعلت تلفظه المدارس واحدة بعد واحدة كأنه نواة ثمرة إنسانية"(١).

وباستخدام الرافعي لتلك الرموز الثلاثة في قوله: (ابن عمدة البلد...وواحد أبويه.....يبسط يده علي) قد وضع يده علي أسباب ثلاثة مهمة وأساسية في طيش وعتو هذا الشاب ليضع تلك المظاهر سببا مباشرا في العتو والتكبر والتجبر الذي وصل إليه، وهو نقد مباشر للمجتمع يسلط الأديب فيه الضوء علي الخلل المجتمعي في تربية النشء الذي تتأثر بناء شخصية الفرد فيه بعدة عوامل بيولوجية وبيئية كما وضح ذلك (وليم ا. هِنرِي) في كتابه قائلا: "منذ ولدت وأنت تتلقي من الأشياء والناس المحيطين بك، انطباعات معينة تتأثر بها شخصيتك.. فضلا عن أن للعوامل الوراثية والحيوية (البيولوجية) المؤثرة في تكوينك الجسماني دخلا في تقدير السرعة التي تطورت بها، وهذه العوامل بدورها تؤثر في شخصيتك إلي حد ما.. ثم أهم من ذلك كله، نوع التجارب التي لقيتها من الناس والأشياء في محيط بيئتك"(٢).

وقد تأثر ابن العمدة هنا بتلك العوامل البيولوجية من تدليل والديه المفرط له ثم من العوامل البيئية التي شجعت ذلك وصفَّقت له وأعطته من التبجيل والتكريم لثروته ومكانة والده ما جعله متكبرا طاغيا علي من هم دونه لا يخشي ارتكاب الجرائم ولا استنزاف المساكين من العامة. وهذا الأسلوب الخاطئ من التربية هو ما أشار الرافعي إليه في ثنايا حديثه ليبين كم تفسد

١) نفسه: ج٣، ص٨١.

٢) استكشف شخصيتك: وليم ا. هِنرِي، ترجمة/ عبد المنعم الزبادي، د/ عبد العزيز القوصي، ص٣٤.

النعمة كثيرا من أهلها إن لم يحسنوا استقبالها، ليضيف بعد ذلك بعض الصفات الأخرى التي تكمل وضوح صورته قائلا: (تعَلَّم وهو يعرف أنه لا حاجة به إلي العلم، فجعلت تلفظه المدارس واحدة بعد واحدة كأنه نواة ثمرة إنسانية)، وهذا نقد اجتماعي آخر سلط الرافعي الضوء عليه إذ أن كثيرا ما تجعل النعمة والدلال أهلها في منأى عن الجد في التحصيل والدراسة إذ يظن بعض أهل الغني والثراء أن طلب العلم والحصول علي الشهادات مطلب عامة الشعب لتحصيل الوظيفة فيما بعد وهم في غني عن هذا العناء والمشقة في طلب العلم إذ تغنيهم أموالهم عن ذلك وتسخر لهم ما يحتاجون من رعاية وخدمات، وهذا ما أدركه ابن العمدة المدلل فلم يتحمل عبء هذا التحصيل حتي أخذت تلفظه المدارس.

وقد رسم الرافعي شدة تلك الحركة بقوله (تلفظ) وهي كلمه توحي بعنف رد الفعل من المدرسة تجاهه حتي أنها تحاول إبعاده عنها قدر المستطاع، ولإثبات الفكرة أكثر أكد أن رد الفعل هذا كان رأي جميع المدارس التي دخلها وقد استخدم هنا من الجمل التصويرية ما يخدم صورته بقوله: (كأنه نواة ثمرة إنسانية)فالنواة أتت مناسبة للفظ (تلفظه) وهو ما يوحي –أيضا– بأن العلم لا يقبل إلا الصادق الطيب من الأجيال الإنسانية، ويلفظ الطالح المعطوب منه.

والرافعي إذا أظهر عيبا ما في رسمه لشخصيته ألحقه بتفسير السبب مثل قوله: "فإذا قيل له في ذلك قال: إن خمسمائة فدان لا تسعها مدرسة....وذهب إلي فرنسا يطلب العلم الذي استعصي عليه في مصر، فأرهف ذلك العلم خياله وصقل حسه، ورجع من باريس رقيق الحاشية خِنْثا متطرفا لا يصلح شرقيا ولا غربيا!"[1].

وهذا نقد اجتماعي آخر سلط الرافعي عليه ريشته بظن البعض أن طلب العلوم في بلاد الغرب هو قمة الرقي والتحضر مثل صاحب تلك الشخصية الذي لم يستطع النجاح في بلاده ولجأ لبلاد الغرب ليحقق ما أخفق فيه؛ لكن هيهات من كان هذا رسمه وتلك صفاته أن يحرز علما ينتفع به وينفع به غيره فما كان منه إلا أن فقد هويته وأصبح نوعا مختلطا من البشر لا تستطيع تمييزه فلا هو خالص العروبة ولا غربيا خالصا.

---

١) وحي القلم، ج٣ ،ص٨١.

من خلال ما سبق يتضح أن "القدرة علي وصف الشخصيات عند الرافعي نجدها تتلون أحيانا بين السخرية...وبين الجد"[1] مثل ما نجده في وصفه عن هذا الشاب الذي ظن بماله أنه تميز عن غيره وسعي ليطلب العلم في بلاد الغرب حتي فقد هويته، وعلي هذا المنوال أيضا وصف الرافعي هذا الشاب قائلا: "فإني لجالس ذات يوم وقد أقبلت علي شأني من الكتابة، وبإزائي فتي ريِّق الشباب، في العمر الذي تري فيه الأعين بالحماسة والعاطفة، أكثر مما تري بالعقل والبصيرة، ناعم أملد تم شبابه ولم تتم قوته، كأنما نكصت الرجولة عنه إذ وافته فلم تجده رجلا...أو تلك هي شيمة أهل الظرف والقصف من شبان اليوم: تري الواحد منهم فتعرف النضج في ثيابه أكثر مما تعرفه في جسمه، وتأبي الطبيعة عليه أن يكون أنثي فيجاهد ليكون ضربا من الأنثى!" [2].

يبدو أن الرافعي قد تعرض لتلك النماذج في أكثر من موقف في حياته حتي ناله بالدراسة والنقد الاجتماعي، فها هو ذا يصف في موقف آخر شابا في مقتبل عمره وزهرة شبابه قابله الرافعي في إحدى الأماكن علي شاطئ البحر في الإسكندرية في وقت ما بين الضحى والظهر، حيث ينقلب هذا المكان في الليل مسرحا ومرقصا.

وقد أخذ الرافعي برسم شخصية هذا الشاب الذي استرعي انتباهه دون غيره لِمَا رأي فيه من صفات تدعو للعجب كقوله في ذلك: (ناعم أملد تم شبابه ولم تتم قوته) وبتلك الصفات التي خلعها الأديب علي شخصيته من نعومة البشرة التي توحي بكونه حليق اللحية والشارب أو بطغيان الصفات الأنثوية عليه بالإضافة لضعف قوته، وكلها أوصاف تمتاز بها النساء، وهو ما أكده الأديب في جملته قائلا: (كأنما نكصت الرجولة عنه إذ وافته فلم تجده رجلا) وبتلك الجملة قد أكد بها ما سبق من وصف إذ نفي عنه صفات الرجولة لما وجده فيه من لين ورقة وتشبه بالنساء في نعومتهم وهيئاتهم وضعفهم.

وكما بينت سابقا أن الأديب لا يتطرق لرسم شيء مناقضا للفطرة أو منافيا للآداب دون أن يفسر أسبابه كقوله في ذلك: (أو تلك هي شيمة أهل الظرف والقصف من شبان اليوم: تري الواحد منهم فتعرف النضج في ثيابه أكثر مما تعرفه في جسمه، وتأبي الطبيعة عليه أن يكون أنثي فيجاهد ليكون ضربا من الأنثى!)

---

١) الخصائص الأسلوبية للرافعي في وحي القلم: ص٥٩.
٢) وحي القلم، ج١ ،ص٢٤١.

وبتلك الفقرة علل الأديب رسمه السابق لهذا الشاب المدلل الذي ترعرع في أحضان المسارح والمراقص كبعض الساقطات، حتي اختلطت صفاته التي كان من المفترض لها أن تنمو وتشتد بصفات الراقصات بما فيها من ميوعة وليونة ونعومة وخضوع بالقول...وغير ذلك حتي لم تعد تدري أَمِن جنس النساء هو أم من الرجال!!، لكنك في النهاية لا تستطيع إلا أن تنظر له علي أنه خنثي هجين يحمل صفات الجنسين، تري ظاهره من بعيد فتخال أنك أمام رجل، فإذا أنت اقتربت منه ورأيت ملامحه وصفاته أدركت أنك قد خدعت بمظهره وما هو إلا خنثي تحمل الضدين معا.

وقد بين الرافعي في نهاية وصفة مدي الإصرار الذي أقام عليه هذا الشاب ليظل كما هو علي حاله هجين الجنسين مهما جاهدت الفطرة فيه أن تعمل عملها إلا أنه يظل يناهضها وينافح عن شخصيته الجديدة وإن خالفت الأعراف قائلا عن ذلك: (وتأبي الطبيعة عليه أن يكون أنثي فيجاهد ليكون ضربا من الأنثى).

وتلك الفقرة وما سبقتها تحمل في طياتها عيوب المجتمع وما تفشي فيه من أمور مخالفة للدين والعرف ومروءة أهل الشيم وهو ما وصفه في بداية مقاله عن المكان الذي التقي فيه بهذا الشاب وكيف أنه أثر علي فطرته ورجولته، وكيف يمكن لتلك الأماكن أن تهدم من خُلق وتبني من رذائل.

أما حين يقف الرافعي مع الشباب والحب فله دأب آخر إذ يقدس الأديب الأسرة والحياة الزوجية ويقف دائما بإزاء تلك القضية مدافعا ومنافحا عنها، ويهاجم العزوبية ومروجيها وفي ذلك ما وصفه من حال هؤلاء الشباب الثلاثة قائلا: "هؤلاء ثلاثة من الأدباء تجمعهم صفة العزوبة، ويحبون المرأة حبا خائفا يقدم رجلا ويؤخر أخري؛ فلا يقبل إلا أدبر، ولا يعزم إلا انحل عزمه. بلغوا الرجولة وكأن ليست فيهم؛ وتمر بهم الحياة مرورها بالتماثيل المنصوبة، لا هذه قد ولد لها ولا أولئك؛ وما برحوا يجاهدون ليحتملوا معاني وجودهم، لا ليطلبوا سعادة وجودهم"[1].

فنراه أجمل في وصفه الثلاثة بما يتفق فيهم من صفات وهي العزوبية وحبهم للمرأة، لكن كما وصف الأديب أن هذا الحب لم يصل بهم إلي النهاية الطبيعية (الزواج) ذلك أن لم يكتمل لهم خطوة أقدموا عليها في سبيل الوصول لهذا الأمر.

---

١) وحي القلم، ج١ ،ص١٧٧.

ونلحظ أن الرافعي هنا بدأ مقالته بما يشبه الإلغاز، فتراه لا يعمد علي الوصف المباشر يهجم عليه في غير أناة، فيكشف عن سره الذي ظل يداعب به خيال المتلقي في مهارة فنية، ثم نراه بعد إجماله هذا وإثارة ذهن المتلقي يعمد إلي التفصيل والتوضيح لإزالة هذا الابهام ومن ذلك ما فسره عن كل واحد منهم قائلا: "فأما (س) فرجل كشيخ المسجد يكاد يري حصير المسجد حيث وطئت قدماه من الأرض، ذو دين وتقوي، ما يزال ينقبض وينكمش ويتزايل حتي يرجع طفلا في ثلاثين من عمره. وهو حائر بائر لا يتجه لشيء من أمر المرأة، وقد فقد منها ما يحل وما يحرم، ولا جرأة لنفسه عليه، فلا جرأة له علي الموبقات، ولا يزين له الشيطان ورطة منها إلا أملس منه، فإن له ثلاثة أبواب مفتوحة للهرب: إذ يخشي الله، ويتوقى علي نفسه، ويستحيي من ضميره"[1].

أما الشخصية الأول فقد عمد الرافعي إلي باطن نفسه يرسم شخصيته من الداخل التي وصفها بالتقوي وحسن الخلق، وحبه الجم للمرأة ودلل علي ذلك نقلا عنه بقوله: "حسبي –والله– من الآلام وآلام معها شعوري بحرماني المرأة؛ فهو بلاء منعني القرار، وسلبني السكينة"[2].

ولكن رغم حبه الشديد لها قد عزف عنها خشية أن يبتلي بواحدة ممن ضجت بهم الشوارع تبرجا وزينة وتجرؤ علي الحرمات والمحارم، فيكون معها في بلاء العيش لا رغده الذي يتمناه، وهو مع ذلك ورع لا يستطيعه الشيطان ولا يقوي علي إغوائه لما به من خشية الله ومراقبة للنفس(فلا جرأة له علي الموبقات، ولا يزين له الشيطان ورطة منها إلا أملس منه، فإن له ثلاثة أبواب مفتوحة للهرب: إذ يخشي الله، ويتوقى علي نفسه، ويستحيي من ضميره).

أما الثاني فقد قال في وصفه: "وأما(أ) فرجل معزابة ولكنه كالإسفنجة، امتلأت حتي ليس فيها خلاء لقطرة، ثم عصرت حتي ليس فيها بلال من قطرة؛ وقد بلغ ما في نفسه وقضي نهمته حتي مما أراد "[3].

أما الثاني فقد جاء حاله فيما وصفه الرافعي بين الثاني والثالث تجمعه بهم صفة العزوبية ويختلف عنهم أول أمره فيما آل إليه من التجرؤ علي الحرمات والمعاصي حتي لم يترك منها شيء إلا تطلع إليه وأقدم عليه مرتكبا ما أراد من الفواحش وقد عبر الرافعي بما يدل عن ذلك

---

١) وحي القلم: ج١، ص١٧٧.
٢) نفسه، ص١٧٨.
٣) نفسه، ص١٧٧.

بقوله: (وقد بلغ ما في نفسه وقضي نهمته حتي مما أراد) وقد أكد كلامه (بقد) للدلالة علي تحقق هذا الأمر بما لا يدعو للشك والريبة.

ثم قلب الصورة علي وجهها تماما بعدما أدرك المتلقي سوء ما أقدمت عليه الشخصية من فحش وإثم، ليعطي لنا صورة مناقضة بعد ذلك حين تاب وأناب وطهر ثوبه من الدنس في قوله: "ثم قلب الثوب. فإذا له داخلة ناعمة من الخز والديباج، وإذا هو الرجل الصالح العفيف الدخلة، ما تنطلق له نفس إلي مأثم، ولا يعرف الشيطان كيف يتسبب لصلحه ومراجعته الود"[١].

وهكذا هو الرافعي في رسمه يحسن استخدام ريشته في تصوير ما يريد من معني ف "مما لاشك فيه أن التعبير بأسلوب فني، يحتاج إلي كثير من المران والدربة. والصورة البيانية المشرقة، لها خطرها في تقويم العمل الأدبي عامة"[٢] كهذا المعني الذي أراد إثباته لصدق توبته وعزمه علي الإنابة حتي أن نفسه ما تحدثه مجرد حديث نفس أو نجوي عن ارتكاب إحدى المعاصي، وكذلك هو الشيطان لم يعد يفلح كسابق عهده معه في إغوائه وهو مهما حاول ذلك جاهدا نكص علي عقبيه.

أما الثالث فهو هائم في حبه وعشقه للنساء كما صوره الرافعي قائلا: " وأما (ع) فهو كالأعرج؛ إذا مشي إلي الخير أو الشر مشي بطيئا برجل واحدة، ولكنه يمشي....وهو(ملك الشوارع) لا يزال فيها مقبلا مدبرا طرفا من النهار وزلفا من الليل، فإذا لم يكن في الشارع نساء ظن الشارع قد هرب من المدينة، وخرج من طاعته "[٣].

ويريد الأديب هنا رسم الشخصية المنتكسة التي تري الأشياء علي عكس حقيقتها، فتقلب عندها الموازين كشخصية هذا الشاب الذي صور بطئ حركته في إقباله علي فعل الأشياء بمشية الأعرج إذ لم ينف عنه السير نحو أهدافه لكنه كما وصفه سير حثيث الخطي، وقد زاد المعني وضوحا بقوله: (وهو ملك الشوارع) دلالة علي شدة ارتباطه بما يحمله الشارع اليوم من مارة أكثرهم من نساء وبما يتصف به أكثرهن من التبرج والتزين فكونه ملك الشارع أي أن قلبه وعقله صارا في هذا المكان.

---

١) وحي القلم، ج١ ،ص١٧٧.
٢) محمد يوسف نجم: فن القصة، ص١١٠.
٣) وحي القلم، ج١ ،ص١٧٨،١٧٧.

وقد دلل الرافعي علي شدة تعلقه هذا بما ألحقه في آخر وصفه قائلا: "ولهذه الشوارع أسماء عنده غير أسمائها التي يتعارفها الناس ويستدلون بها. فقد يكون اسم الشارع مثلا: (طه حسين) ويسميه هو (شارع ماري). ويكون اسم الآخر: (شارع كتشنر) فيسميه(شارع الطويلة)...وهلم جرا ومسخا"[١].

وما تدل تلك التسمية التي اتخذها اسما للشوارع إلا علي ما صار إليه قلبه من العشق والهيام بهم، حتي أصبح المكان الذي يقطن به كل منهم يعرف لديه بأسمائهم.

فنلحظ هنا أن الرافعي في رسمه لكثير من شخصياته يعمد إلي إخفاء هوياتهم حفاظا علي أسرارهم ومراعاة لمشاعرهم وبخاصة إن كانت تلك الأسرار لا يود أصحابها أن يطلع عليها غيرهم فنراه يكني عن ذلك برموز كقوله (س) و(أ) و(ع).

رابعا: وصف شخصيات المتكبرين

وهو إذ يصف شخصيات المتكبرين يقف علي معان خفية يبرزها في صورة حسية إذ "الفني المبدع، هو الذي يُوَفق إلي استبطان خوافي النفس الإنسانية، عنصر الحياة الأول، وإبرازها والتعبير عنها بقوة وصدق"[٢]، كقوله في وصف أحدهم علي لسان أحد الشخصيات التي أجري الحوار علي لسانها قائلا: "حدثني صاحب سر(م) باشا قال: جاء يوما إلي زيارة الباشا رجل دخل علي متهللا مشرق الوجه كأنه مضاء من داخله بشمعة...ويترنح عطفاه كأنما تهزه أسرار عظمته؛ ويمشي متخلعا كالمرأة الجميلة التي أثقلها لحمها وأثقلتها المعاني الكثيرة من أعين الناظرين إليها [٣].

فنراه هنا قد عمد إلي استقراء وجه شخصيته الذي تميز بنضارة وإشراق بشرته من حيث المظهر الخارجي، بالإضافة لمشيته التي وصفها بما تمتاز به من الليونة والرقة وتلك صفات منافية لصفات الرجال، فنراه قد خلع علي شخصيته تلك صفة من صفات النساء التي أراد بها الوصول لمعني خفي ألا وهو صفة(الكبر) الذي تحمله تلك الشخصية.

---

١) نفسه: ج١: ص١٧٨،١٧٧.
٢) فن القصة، ص١٣١.
٣) وحي القلم، ج٢ ،ص٢٤٧.

ولا يزال مسترسلا في وصف شخصيته بما يدلل علي فكرته قائلا: "وعلي شفتيه خيال من فكرة هؤلاء الكبراء والمغرورين الذين لا يأمر أحدهم رجلا صغيرا إلا ليعلمه أنه هو كبير، فيكون في الأمر شيئان: الأمر واللؤم؛ وأقبل علي في هيئة شامخة لو نطقت لقالت:(سبح اسم ربك الأعلى)" [1].

وبإضافة حبه لإعطاء الأوامر والتي يشعر معها بالعلو ورفعة مكانته ودونية من دونه قد ألبس الصورة معني خاصا يسهل فهمها خاصة مع كثرة وجود تلك الفئة في هذا العصر، وهو حين أراد إنهاء لوحته ختمها بجملة مرعبة ألبسه فيها صفة ليست من صفات البشر ليدلل علي أن هيئته التي بدا الكبر فيها جليا للأعين تخطي ما يمكن أن يصل إليه العقل من معني، حيث كاد ينازع الله –جل وعلا– في صفة من صفاته، إذ يحب أن يذكره الناس ويحمدونه ويسبحون بحمده –والعياذ بالله–.

ومن ذلك أيضا ما تناوله في وصفه قائلا علي لسان أحد شخصياته: "وقال صاحب سر(م) باشا فيما حدثني به: جاء ذات يوم قنصل الدولة الفلانية من هذه الدول الصغيرة؛ التي لو علم الذباب في بلادها أن في مصر امتيازات أجنبية، لطمعت كل ذبابة أن يكون لها في بلادنا اسم الطيارة الحربية...ورأيته قد دخل علي شامخا باذخا متجبرا، كأنه قبل أن يجئ إلي هذا الديوان لمقابلة الحاكم المصري قد تكلم في التلفون مع إسرافيل يأمره أن يكون مستعدا للنفخ في الصور" [2].

في بداية هذا الرسم ما يؤكد علي حفظ الرافعي لأسرار بعض شخصياته إن أراد الحديث عنهم، وهو ما فعله في أول رسمه لتلك الشخصية بقوله: (قنصل الدولة الفلانية) ولم يصرح باسمه أو اسمها، وهو مع ذلك قد أشار متعمدا إلي صغر حجم تلك الدولة بقوله: (من هذه الدول الصغيرة) وذلك للدلالة لما أراد إثباته من وصف فبرغم صغر تلك الدولة وكبر دولة بحجم مصر إلا أن أقل وأهون مخلوق بها إن استطاع أن تكون له السيادة في دولة بحجم مصر لفعل وما رده ذلك قلة شأنه أو ضعف مكانته.

---

١) وحي القلم: ج٢، ص٢٤٧.
٢) نفسه: ج٢، ص٢٥٨.

هذا وقد بدأ الرافعي وصفه لشخصيته بوصفه للمكان القادم منه هذا القنصل الأجنبي ليتطرق بعد ذلك واصفا هيئته بقوله: (ورأيته قد دخل علي شامخا باذخا متجبرا، كأنه قبل أن يجئ إلي هذا الديوان لمقابلة الحاكم المصري قد تكلم في التلفون مع إسرافيل يأمره أن يكون مستعدا للنفخ في الصور).

وهنا رسم الرافعي شخصية المتكبر مصورا هيئة مشيته التي تدل علي الكبر وانتفاخ الصدر بقوله: (دخل علي شامخا باذخا متجبرا) أي فخور متكبر يغالي في ثيابه وزينته متسلطا ومتعاليا عن قبول الحق وهذا ما نهي الله عنه في كتابه قائلا: "وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا"[1] ، ليلحق الرافعي بوصفه بعد ذلك في النهاية جملة توحي إلي مدي وصل إليه من الكبر في قوله: (كأنه قبل أن يجئ...) أي كأنه لا يكتفي إلا أن ينازع مولاه في صفة من صفات الربوبية فيبسط يده علي الكون بأسره إن شاء أقام الساعة وإن شاء أجلها –والعياذ بالله–. وما ذكره الرافعي في وصف تلك الفئة من الناس هو ما يسمي في علم النفس بالشخصية النرجسية، تلك التي " تتيم بالإعجاب بالنفس وتضخم مفهوم الذات تضخما لا يشفع له الاعتذار ولا يجدي معه التغاضي عنه. يري أحدهم بعدسات تصغير مضاعفه، يغلب عليه الإعجاب بالنفس والكبر والأنانية والكذب والرياء"[2].

ومن هنا نلحظ أن الرافعي يميل أحيانا للمبالغة أثناء رسمه لشخصياته كهذا الوصف الذي ألبسه لشخصيته، والمبالغة هنا مقبولة لوقوعها في صفات المتكبرين الذين توحي صفاتهم بذلك وهم –لا شك– ينازعون الله–جل جلاله– في صفة من صفاته، كما ورد عن أبي هريرة – رضي الله عنه– عن النبي –صلي الله عليه وسلم– قال عن رب العزة: "العز إزاره. والكبرياء رداؤه. فمن ينازعني، عذبته"[3].

ليستطرد الرافعي وصفه قائلا: " ورأيته جلس متوقرا كأنما يشعر في نفسه أنه أثقل من مدفع ضخم، لأن في نفسه وهم القوة؛ وخيل إلي أنه موضعه بين السقف والأرض؛ إذ يحمل في رأسه فكرة أنه الأعلى، وكانت له هيئة صريحة في أن الأجنبي المقيم هنا ليس هو كل الأجنبي،

---

١) سورة (الإسراء): آية (٣٧).

٢) تحليل الشخصية وفن التعامل معها: عبد الكريم الصالح، د. ط، ١٤٢٧هـ، ص٢٤.

٣) صحيح مسلم: الإمام أبي الحسن مسلم بن الحجاج القُشَيْري النَّيْسَابُوري، دار الكتب العلمية، بيروت–لبنان، ط١، ١٤١٢هـ، ١٩٩١م، رقم٢٦٢٠، ص٢٠٢٣.

بل لا تزال منه بقية تتممها دولته، وفي الجملة كان الرجل كلمة واضحة مفسرة ينطق بأن للقانون المصري قانونا يحكمه في بلاده!"[1].

ليستقرئ هنا هيئته التي بدا عليها، واصفا جلسته التي توحي بما فاضت به نفسه من كبر، وفي نفسه ايحاء بعظيم قدره وثقل مكانته التي لا يسعها زمان ولا يليق بوزنه حيز أو مكان، وهو في ذلك من وصف يحمل نقدا اجتماعيا إذ أن هذا الأجنبي ما دفعه لمثل تلك الصفات ولا امتلأ قلبه بمثل تلك الأمراض إلا لما وجده من امتيازات وحقوق في غير بلاده فكان حري به أن يجد نفسه ومكانته في غير بلاده وهو ما ختم به الرافعي وصفه بقوله: (كان الرجل كلمة واضحة مفسرة ينطق بأن للقانون المصري قانونا يحكمه في بلاده!).

ليتطرق الرافعي بعد ذلك إلي قضية وآفة خطيرة من آفات العصر الذي ابتلي بها كثير من الناس وهي ذوبان الشخصية في شخصية غيرها، ونسيان ما كانت عليه من عهد قريب، وتلك آفة كثير من المهاجرين الذين يمكثون بضع سنين في بلاد الغرب ثم يعودون وقد امتلأت قلوبهم كبرا وألسنتهم اعوجاجا وهيئاتهم بذخا وتطرا ومن ذلك ما وصفه الرافعي علي لسان نفس الشخصية قائلا: "وقال صاحب سر(م) باشا: جاء (حضرة صاحب السعادة) فلان لزيارة الباشا؛ وهو رجل مصري ولد في بعض القري، ما نعلم أن الله تعالي ميزه بجوهر غير الجوهر، ولا طبع غير الطبع، ولا تركيب غير التركيب، ولا زاد في دمه نقطة زهو، ولا وضعه موضع الوسط بين فنين من الخليقة. غير أنه زار فرنسا، وطاف بإنجلترا، وساح في إيطاليا، وعاج علي ألمانيا، ولون نفسه ألوانا، فهو مصري ملون. ومن ثم كان لا يري في بلاده وقومه إلا الفروق بين ما هنا وبين ما هناك. فما يظهر له دين قومه إلا مقابلا لشهوات أحبها وغامر فيها، ولا لغة قومه إلا مقرونة بلغة أخري ود لوكان من أهلها، ولا تاريخ قومه إلا مغمي عليه كالميت بين تواريخ الأمم" [2].

وقد بدأ هذا الوصف أيضا كحال سابقه بالتعريض عن اسم شخصيته وهو باب في الأدب يحسب له، ليبين بعد ذلك أنه مصري الجنسية أي أنه يمتاز بما يمتاز به أهل مصر من العروبة والصفات العربية ليلحق بوصفه بعد ذلك كونه من أبناء إحدى القري ليدلل علي بساطة العيش الذي نشأ فيه وقد أراد الكاتب إثبات ذلك للدلالة علي ما سيأتي بعد ذلك من أوصاف.

---

١) وحي القلم، ج٢ ،ص٢٥٨.
٢) نفسه، ج٢ ،ص٢٢٧.

ليزيد تأكيد فكرته بعد ذلك بقوله: (ما نعلم أن الله تعالي ميزه بجوهر غير الجوهر، ولا طبع غير الطبع، ولا تركيب غير التركيب، ولا زاد في دمه نقطة زهو، ولا وضعه موضع الوسط بين فنين من الخليقة) وهذا شأن أغلب المتكبرين ما بهم عن غيرهم زيادة فضل إنما هي أمراض القلوب التي تجعل أصحابها يشعرون بنقصهم فيلجئون لسدها بالكبر والخيلاء.

ليزيل الرافعي الستار بعد ذلك موضحا السبب الذي دفع بهذا المصري إلي تلك الصفة الذميمة مستدركا وصفه بقوله: (غير أنه زار فرنسا، وطاف بإنجلترا، وساح في إيطاليا، وعاج علي ألمانيا، ولون نفسه ألوانا، فهو مصري ملون. ومن ثم كان لا يري في بلاده وقومه إلا الفروق بين ما هنا وبين ما هناك. فما يظهر له دين قومه إلا مقابلا لشهوات أحبها وغامر فيها، ولا لغة قومه إلا مقرونة بلغة أخري ود لوكان من أهلها، ولا تاريخ قومه إلا مغمي عليه كالميت بين تواريخ الأمم).

وهذا حال بعض الناس ممن ينظرون للغرب نظرة إجلال وتقدير فيسارعون للسفر إليهم والاختلاط بهم وتقليدهم والتشبه بهم ثم هم إن عادوا إلي مسقط رأسهم ومنبع نشأتهم بعد ذلك ترفعوا عن الاختلاط بأهلهم والتحدث بلغتهم والتكيف مع طبيعة حياتهم وتري في ألسنتهم اعوجاجا وفي كلامهم كبرا وهو ما حدث مع صاحب تلك الشخصية التي وصفها الرافعي معللا لذلك من وجهة نظر صاحب الشخصية كونه زار العديد من البلدان الأجنبية ك: (فرنسا، إنجلترا، إيطاليا، ألمانيا) وقد استعمل مع تلك البلاد أفعالا مختلفة مثل: (زار، طاف، ساح، عاج) ليوحي بقصر المدة التي حل بها ضيفا علي تلك البلاد، وهو معني خفي أراد الكاتب إبرازه ليستنكر ما وصل إليه صاحب تلك الشخصية وهو فقط زائر وضيف سريع علي تلاد البلاد فكيف به –إذن– إن كان مقيما بها أو واحدا من أهلها.

والرافعي في ذلك لا يعطي الغرب أهمية أو ميزة أعلي شأنا من بلاده إنما هو أسلوب لمجاراة الشخصية في تفكيرها، إذ نجده بعد ذلك يعقد المقارنة بين الشرق الغرب قائلا: (فما يظهر له دين قومه إلا مقابلا لشهوات أحبها وغامر فيها، ولا لغة قومه إلا مقرونة بلغة أخري ود لوكان من أهلها، ولا تاريخ قومه إلا مغمي عليه كالميت بين تواريخ الأمم).

وهذا توبيخ خفي من الرافعي يري فيه أن ليس هناك من يري فضل بلاد الغرب علي بلاده العربية الإسلامية إلا أن يكون قد صادف ذلك هوي في نفسه كالشهوات المباحة هناك والمحرمة في دينه هنا، واللغة الأجنبية التي أصبح كثير يتشدق ويُلوي بها لسانه ظنا منه أنه بذلك

حاز التقدم والرقي، وهو مع ذلك يكثر من مدح قاداتهم وأعلامهم ولا يتذكر الأعـــلام والأبطـــال علي مر تاريخه وهذا ما يسمي بفقد الهوية وانسلاخها.

****وهو يبدع حين يصف بعض **رجال الدين** المتكبرين الـــذين يتـــاجرون بعلمهـــم وعملهم فيقول واصفا أحدهم: "فتراه في المسجد يمشي مختالا، قد تحلي بحليته، وتكلف لزهـــوه، فلبس الجبة تسع اثنين، وتطاول كأنه المئذنة، وتصدر كأنه القبلة، وانتفخ كأنه ممتلئ بالفروق بينه وبين الناس، وهو بعد كل هذا لو كشف الله تمويهه لانكشف عن تاجر علم بعض شروطه علـــي الفضيلة أن يأكل بها، فلا يجد دنيا ذاته إلا في المسجد، فهو نوع من كذب العالم الديني علي دينه" [١].

فقد بدأ الأديب وصفه مستخدما فعل الرؤية ليثبت أن ما سيُقدم عليه من وصف لا ينكره مبصر، لِيُثَني بعد ذلك بذكر المكان ألا وهو (المسجد) ليثبت به معني خفيا وهو أن هـــذا الفعـــل المشين من التكبر والغرور لا يليق بقلب المسلم في أي بقعة من الأرض كانت فكيف هو –إذن– إن كان في بيت من بيوت الله؟!!.

ليعمد الأديب بعد ذلك إلي وصف شخصيته عن طريق الجمع بين حركة المـــشي فـــي قوله:(فتراه يمشي مختالا) وبين المظهر الخارجي في قوله:(تحلي بحليته وتكلف لزهوه) فتصوير الكاتب لهيئة الثياب دلالة علي التفاخر والتكبر، ليصور بعد ذلك حركة جسمه وبنيانه في قولـــه: (تطاول كأنه المئذنة، وتصدر كأنه القبلة، وانتفخ كأنه ممتلئ بالفروق بينه وبـــين النـــاس) وهـــو مستوحى من قول الله تعالي: "وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَـــالَ طُولًا"[٢].

نلحظ أن تلك الصفات التي اتسمت بها الشخصية من حب الظهور وتعظيم النفس والكِبر هي ما تتسم به الشخصية النرجسية من صفات، والتي تتسم ببعض مثل: [٣]

١/ المعني المتعاظم لأهمية الذات أو التفرد

---

١) وحي القلم، ج٢ ،ص٢٢٦.

٢) سورة الإسراء: آية (٣٧).

٣) الشخصية النرجسية(دراسة في ضوء التحليل النفسي): د. عبد الرقيب أحمـــد البحيـــري، دار المعـــارف، ط١، ١٩٨٧م، ص٤٧.

٢/ الاستعراضية وحب الظهور: طلب الفرد الانتباه والالتفات إليه والإعجاب به بصفة مستمرة من الآخرين.

ليختم الرافعي وصفه بعد ذلك بأسوأ ما يمكن لعالم الدين أن يتصف به من صفات، وذلك كونه يكسب قوته من تزييف الحقائق ومن المتاجرة بعلمه ودينه وبخداع أهله وقومه والأعجب من ذلك هو المكان الذي يعمد فيه إلي تلك المتاجرة الزهيدة وهو بيت الله، فتلك مفارقة عجيبة أراد الرافعي إثباتها لنا ليدلل بها علي تلك الصفات الذميمة التي لا يتحلى بها إلا مفلس من دنياه وأخراه.

سادسا: وصف شخصيات الأعلام

وللرافعي حال أخري إذ تصدي لرسم شخصيات الأعلام من العلماء والأدباء والشعراء، خاصة من كانت تربطه به علاقات وثيقة من الصداقة والمودة، إذ كان علي رسمهم أقدر ومن شخصياتهم وصفاتهم أقرب، ومن هؤلاء الذين تصدي لرسمهم (حافظ إبراهيم) الشاعر اليتيم الذي كتب عنه الرافعي قائلا: "ومن عجائب هذا اليتيم الحزين أنه كان قوي الملكة في فن الضحك، كأن القدر عوضه به؛ ليوجده في الناس عطف الآباء ومحبة الأخوة. ولم يخل مع فقره من ذريعة قوية إلي الجاه، ووسيلة مؤكدة إلي ما هو خير من الغني" (١).

هنا نري الرافعي قد عمد إلي استقراء شخصية حافظ ورسمه من الداخل من خلال حالاته المتعددة، فبرغم كونه يتيما واليتم –لا شك– قد يضعف المرء ويرهقه ويميله للحزن والانكسار إذ فقد ركنا وسندا له قوي بعد الله –عز وجل– إلا أن حافظ رغم ذلك كان علي النقيض تماما تعلوه الابتسامة والبشاشة بل كان أقدر علي إسعاد الناس ورسم البسمة علي وجوههم، وبرغم كونه فقيرا إلا أنه كان عزيز النفس متطلعا دائما إلي الجاه ورفعة الشأن وقد كان ذلك إذ صار علما من أعلام الأدب في العصر الحديث.

ولا يزال الرافعي منبهرا بشخصية حافظ مسترسلا في عد صفاته قائلا: "كان يخيل إلي أنه هو راض مستقر هادئ، كأنما قَضَي من الحياة نهمته ولم يبق في نفسه ما تقول نفسه ليت ذلك لي!. وكنت أعجب لهذا الخُلق فيه ولا أدري ما تعليله إلا أن يكون قد خلق مطبوعا بطابع اليتم

١) وحي القلم، ج٣ ،ص٢٥٥.

فلم يعرف منذ أدرك إلا أنه ابن القدر؛ تأتيه الأفراح والأحزان من يد واحدة مقبلة كما تنال الصبي ألطاف أبيه ولطمات أبيه" [1].

وهو في ذلك يتعجب من شخصية حافظ الصابرة الراضية، التي لا تتلهف لنيل المزيد من حطام الدنيا الزائل وما زال الرافعي يعدد من صفاته منبهرا ومتعجبا منها، حتي حاول إيجاد تفسير لذلك بأن يكون ما وُصف به من صفة اليتم أصقل شخصيته وأرهف حسه وألبسه من حلل الرضا.

ولا يزال الرافعي منبهرا من هذا الخلق مشيدا به حتي نجده يذكره في أكثر من موضع له قائلا: "وكان علي وجه حافظ لون من الرضي لا يتغير في بؤس ولا نعيم، كبياض الأبيض وسواد الأسود؛ وهذا من عجائب الرجل الذي كان في نفسه فنا من الفوضى الإنسانية، حتي لكأنه حلم شعري بدأ من أبويه ثم انقطع وتُرك لتتممه الطبيعة!"[2].

ونلحظ أن الرافعي هنا لا يزال مسترسلا في وصف الشخصية من الداخل، إذ أشار إلي وجود أنواع مختلفة من الرضا وذلك بذكر لفظ (من الرضي)، وأن حافظا كان يملك نوعا منه وهو الذي لم يكن يتغير بتغير أحواله من النعيم والبؤس إذ هو راض دائما بأقدار الله من سراء وضراء، والرافعي هنا دقيق في اخيار ألفاظه فلو أنه أعطي حافظا صفة الرضا علي الدوام بكل أحواله، لألبسه صفة الخمول –أيضا– إن تكاسل عن السعي وطلب الطموح والعلا والجاه الذي أشار إليه سابقا في قوله، لكنه بذلك مدح صفاته ونفي عنه ما يذمه.

ولا يزال تعجب الرافعي من حافظ قائما إذ كان يري فيه الشيء وخلافه اليتم وجبره بخلق الرضا بل وامتلاكه ملكة الضحك واسعاد الناس، والفقر وعلاجه بخلق الإصرار والمثابرة والطموح، ويبدو أن الرافعي لا يقتصر عند هذا الحد من التعجب إنما يري كل شيء في حافظ جميلا حتي أنه رأي الجمال فيما أسماه الفوضى الإنسانية وهذا ما وصفه في قوله: "ومن نظر إلي حافظ علي اعتبار أنه فن من الفوضى الإنسانية رآه جميلا جمال الأشياء الطبيعية لا جمال الناس؛ ففيه من الصحراء والجبال والصخور والغِياض والبرق والرعد وأشباهها؛ وكنت أنا أراه بهذا

---

١) نفسه: ج٣، ص٢٥٥.

٢) وحي القلم، ج٣ ،ص٢٥٦.

العين فأستجمله، ويبدو لي جزلا مُطهَّما، وأري في شكله هندسة كهندسة الكون؛ تتمم محاسنها بمقابحها وكم قلت له: إنك يا حافظ أجمل من القَفْر"[1].

يبرر الرافعي في وصفه هذا كيف أن الجمال نسبي لدي الناس، ويختلف الجمال علي اختلاف الناظرين، فمن نظر بعين الرضا والتفاؤل رأي الجمال وإن كان في فوضي الأشياء كما قال الرافعي، ومن نظر بعين التشاؤم رأي القبح وإن كان في بهاء الشيء ورونقه.

ومن هذا المنطلق رأي الرافعي حافظا، حين نظر إليه كونه فنا من فنون الطبيعة، وحيث يكمن جمال الطبيعة بما فيها من فصول وتقلبات، هكذا رأي الرافعي الجمال في حافظ وما فيه من تقلبات وتغيرات، أي هكذا كانت نظرة الأديب والفنان لأديب وفنان مثله.

كما نلحظ أن الرافعي اقتصر هنا علي رسم شخصيته من الداخل ولم يتطرق لغير ذلك من أوصاف ومظاهر خارجية؛ إذ أن الصورة الداخلية دائما ما تكشف الإنسان وتُظهر خِلاَله الحسنة والسيئة وبها يستطيع المرء أن يكتشف غيره ويراه، ومن خلال هذا الوصف الداخلي استطاع الأديب أن يبرز سمات شخصية حافظ ويزيد من حسن صورته وبهائها.

ولم يسر الرافعي علي هذا المنوال مع حافظ فقط، إنما كان هذا دأبه –أيضا– مع أمير الشعراء (أحمد شوقي) الذي قال في وصفه: "هذا هو الرجل الذي يخيل إلي أن مصر اختارته دون أهلها جميعا لتضع فيه روحها المتكلم، فأوجبت له ما لم توجب لغيره، وأعانته بما لم يتفق لسواه، ووهبته من القدرة والتمكين وأسباب الرياسة وخصائصها علي قدر أمة تريد أن تكون شاعرة ، لا علي قدر رجل في نفسه؛ وبه وحده استطاعت مصر أن تقول للتاريخ: شعري وأدبي!"[2].

ونلحظ أن الرافعي هنا قد رسم قدر شوقي ومكانته وجسدها كأننا نراها حيث أشاد إلي موهبته وملكته الشعرية وكيف تربع علي عرش الأدب ونال به أرفع الأوسمة وشرف المكانة حتي خلد ذكره بين فحول الشعراء، وقد أنصف الرافعي فيما تطرق له من وصف وهذا أمر يحسب له، فكونه كان شاعرا أيضا معاصرا له ثم يثني عليه وينزله منزلته لهو العدل والمصداقية والوفاء.

---

١) نفسه: ج٣، ص٢٥٦.

٢) وحي القلم، ص٢٦٣.

ولا يزال الرافعي يتقصى أخبار شوقي ويعدد في وصفه قائلا: "رجل عاش حتي تم، وذلك هو برهان التاريخ علي اصطفائه لمصر، ودليل العبقرية علي أن فيه السر المتحرك الذي لا يقف ولا يكل ولا يقطع نظام عمله، كأن فيه حاسة نحلة في حديقة، ويكبر شعره كلما كبر الزمن، فلم يتخلف عن دهره، ولم يقع دون أبعد غاياته، وكأنه مع الدهر علي سياق واحد"[١].

فقد ألبس الرافعي شوقي هنا صفة التمام والكمال والنضج في عقله وفكره ورشده ليبرهن علي أسباب تفرده واصطفائه، بالإضافة لرسم حركته رسما حسيا يتراءى أمام القارئ رأي العين إذ شبهه بالنحلة في اجتهادها ونشاطها ونظامها وانجازها لمهامها ليدلل علي ما توصل إليه شوقي الآن من مكانة وما حقق من غايات حتي حازت مصر به ريادة الأدب في هذا العصر.

ولم ينس الرافعي في خضم هذا الرسم لهذا العَلم أن يشيد به معلنا رأيه صريحا قائلا: "أقرر هذا في شوقي –رحمه الله– وأنا من أعرف الناس بعيوبه وأماكن الغميزة في أدبه وشعره؛ ولكن هذا الرجل انفلت من تاريخ الأدب لمصر وحدها كانفلات المطرة من سحابها المتساير في الجو، فأصبحت مصر به سيدة العالم العربي في الشعر" [٢].

كل هذا وذاك يدلل علي ما اتصف الرافعي به من أمانة ومصداقية في النقل والطرح والوفاء لأهل الفضل والمكانة وأن الأدب لديه لم يكن إلا وسيلة لمعالجة أوضاع المجتمع وسد خلله وإعطاء أهل الفضل حقهم ومكانتهم.

<u>وفي الختام يمكننا القول أن:</u>

ما سبق هو من مقالات الكاتب الاجتماعية التي أجاد فيها إحكام الوصف والقدرة المتميزة علي التحليل، وكانت البيئة –ولا شك– لها دورها الكبير البارز في التشكيل الفني لهذه المقالات التي نقد فيها الأخلاق والمرأة والطفولة والفقر والجريمة والانحراف، وذلك في ظل ثقافة إسلامية عالية، خاض بها كثيرا من المعارك الأدبية مع معاصريه: طه حسين، والعقاد، وعبد الله عفيفي.

---

١) نفسه، ج٣ ،ص٢٦٣.
٢) نفسه: ج٣، ص٢٦٣.

المصادر والمراجع

أولاً: أهم المصادر والمراجع:

القرآن الكريم. *

ثانيا: المصادر والمراجع:

١/ إجعل حياتك سعيدة: ألبرت إيلليس، دار العربية للعلوم، ط١، مطبعة المتوسط، ٢٠٠٤م.

٢/ بلاغة القصة (مقاربات تطبيقية في القصة القصيرة): د/أحمد يحي علي، د/ أحمد عبد العظيم، د/ علاء عبد المنعم، الأكاديمية الحديثة للكتاب الجامعي، ط١، ٢٠١٠م.

٣/ تحليل الشخصية وفن التعامل معها: عبد الكريم الصالح، د. ط، ١٤٢٧هـ.

٤/ الترجمة الشخص حمد سعيد العريان، ط:٣، ١٣٧٥هـ-١٩٥٥م.

٥/ حياة الرافعي: محمد سعيد العريان، ط:٣، ١٣٧٥هـ-١٩٥٥م

٦/ استكشف شخصيتك: وليم ا. هِنرِي، ترجمة/ عبد المنعم الزبادي، د/ عبد العزيز القوصي، مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، د. ط، د. ت.

٧/ الشخصية: محمد عطية الإبراشي، مطبعة المعارف ومكتبها بمصر، ط٤، ١٣٦٣هـ، ١٩٤٤م.

٨/ الشخصية النرجسية(دراسة في ضوء التحليل النفسي): د. عبد الرقيب أحمد البحيري، دار المعارف، ط١، ١٩٨٧م.

٩/ صحيح مسلم: الإمام أبي الحسن مسلم بن الحجاج القُشَيْري النَّيْسَابُوري، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، ط١، ١٤١٢هـ، ١٩٩١م.

١٠/ علم الأسلوب مبادئه وإجراءاته: صلاح فضل، دار الشروق، ط١، ١٩٩٨.

١١/ فن القصة: محمد يوسف نجم، دار بيروت، د. ط، ١٩٥٥م.

١٢/ فن القصة القصيرة: د. رشاد رشدي، مكتبة الأنجلو المصرية، ط١ ١٩٥٩م، ط٢ ١٩٦٤م.

١٣/ قراءة في أسلوب وحي القلم: محمد السيد موسي، د، ط ، د، ت.

١٤/ المسرحية نشأتها وتاريخها وأصولها: عمر الدسوقي، دار الفكر العربي، د. ط، د. ت.

١٥/ معجم مصطلحات نقد الرواية: د. لطيف زَيتـــوني، دار النهـــار للنـــشر، لبنـــان، ط١، ٢٠٠٢م.

١٦/ النقد الأدبي الحديث: د. محمد غنيمي هلال، دار نهضة مصر، د. ط،١٩٩٧م.

١٧/ وحي القلم: مصطفي صادق الرافعي، دار ابن الجوزي، ط١، ٢٠١٥م، ج١،٢،٣.

الرسائل العلمية:

١٨/ الرمز في الشعر الفلسطيني المعاصر (فواز عيد ومحمـــد القيـــسي وأحمـــد دحبـــور) أنموذجا: رُلى يوسف صبحي عصفور، رسالة دكتوراه، اللغة العربية وآدابهـــا، الجامعـــة الأردنية، ٢٠١٣م.

البحوث والمقالات:

١٩/ الخصائص الأسلوبية للرافعي في وحي القلم: مكارم الديري، بحوث ومقالات، مـــج١١، ع٤٣،٤٤

المواقع الالكترونية:

٢٠/ مركز تفسير للدراسات القرآنية، دلالات الألفاظ القرآنية(الدلالة الصوتية، عبد الحميد هنداوي). https://tafsir.net.